

الرواية الحائزة على جائزة  
نوبل في الأدب للعام ١٩١٩

روايات (الهلال

كاميلو خوسيه ثيلا

عائلة باسكوال دوارتي



86  
C3



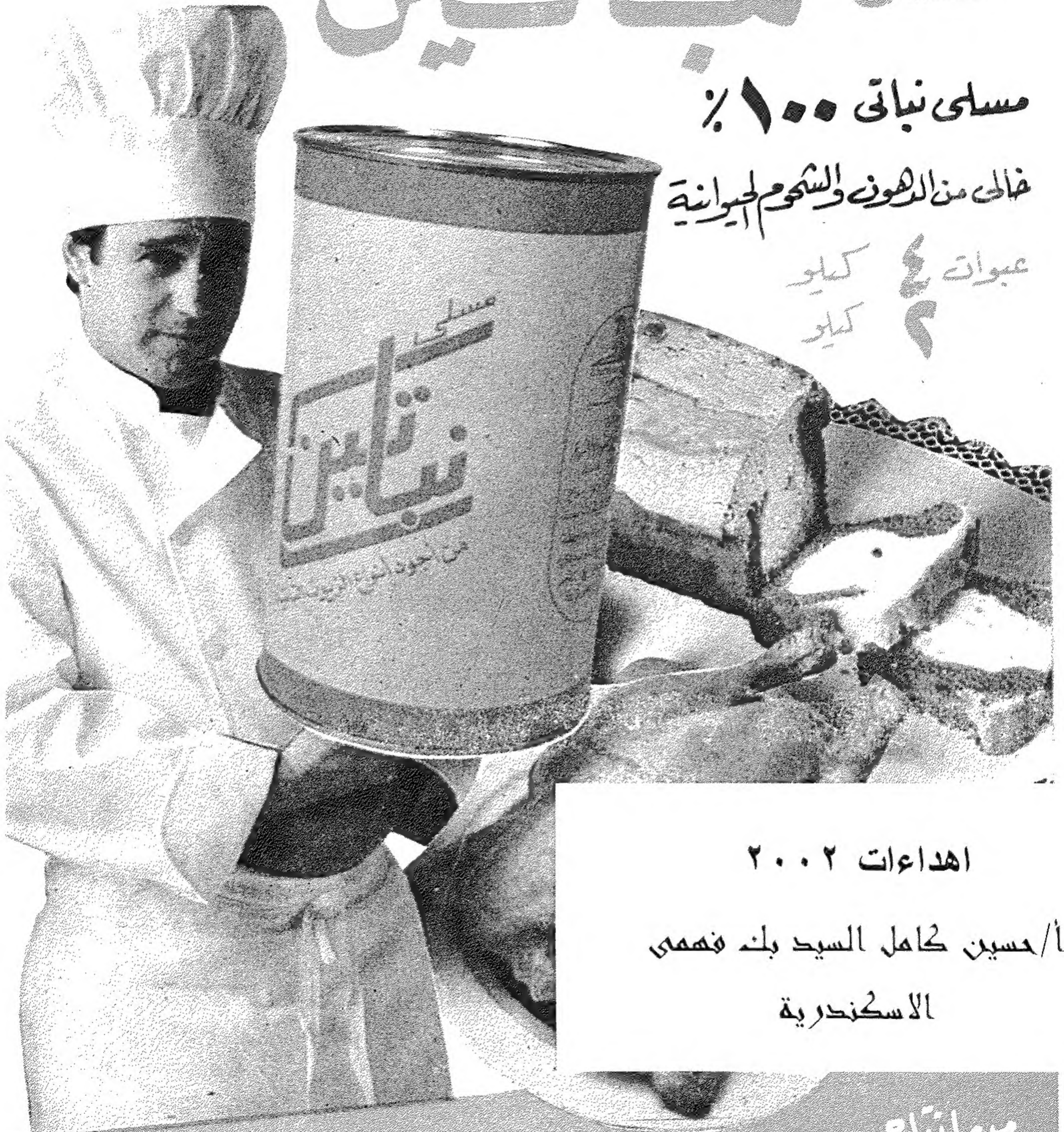
لأشهى الأطعمة والحلويات

مسلى نباتين

مسلى نباتي ١٠٠٪

خالٍ من الدهون والسكر الحيواني

عبوات ٤ كليل  
٢ كليل



اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمي

الاسكندرية

من إنتاج:

شركة السلام والصودا المصرية





## ● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى ( ١٢ عددا ) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها . وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج م ع نقدا او بحواله بريديه غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عالىة عند الطلب

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٢٠٠ قرش -

لبنان ٧٠٠ ليرة . الاردن ٦٠٠ فلس . الكويت ٥٠٠ فلس . العراق ٢٥٠٠ فلس . السعودية ٧ ريال . البحرين ١٢٠٠ فلس . الدوحة ٨ ريال . دى ٨ دراهم . ابوظبى ٨ دراهم . مسقط ٨٠٠ بيزة . تونس ١٦٥٠ مليما . المغرب ٢٠ درهما . غزة والضفة ١٢٥ سنتا . الجمهورية العربية اليمنية ٨ ريال . جمهورية اليمن الديمقراطية ٢ دولار . ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة . لندن ١٥٠ جك

الكويت : السيد عبد العال بسيونى  
زغلول الصفاة - ص . ب رقم  
1307921833 - تليفون -  
٤٧٤١١٦٤

اشترك  
فى  
روايات  
الهلال

الحصول على نسخ من روايات الهلال  
اتصل بالتلكس 92703 HILAL. U. N.

الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عمر العرب - القاهرة  
تليفون ٣٦٢٥٤٥ سبعة خطوط

## روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة  
شهريه  
لنشر  
القصاص  
العالمى

نصدر عن مؤسسة  
دار الهلال

العدد ٤٩١ نوفمبر ١٩٨٩  
ربيع الثانى ١٤١٠ هـ  
NO. 491 NO. 1989

رئيس مجلس الإدارة  
مكرم محمد أحمد  
رئيس التحرير  
مصطفى نبيل  
سكرتير التحرير  
محمود قاسم

الغلاف بريشة الفنانة  
سميحة حسنـين

# عائلة باسكوال دوارتي

تأليف

كاميلو خوسيه ثيلا

"الحائز على جائزة نوبل في الأدب"

لعام ١٩٨٩

ترجمة

د. حامد أبو أحمد



دار الهلال

هذه هي الترجمة الكاملة للرواية الإسبانية  
LA FAMILIA DE PASCUAL  
DURATTE

تأليف

CAMILO JOSE CELA

قبل أن تقرأ ..

**كاميلو خوسيه ثيلا**

**وجائزة نوبل ١٩٨٩**

بقلم : د . حامد أبو أحمد

عندما علم كاميلو خوسيه ثيلا بفوزه بجائزة نوبل في الآداب فعل مثلما فعل العام الماضي أديبنا الكبير نجيب محفوظ ، إذ لم يغير أي شيء من عاداته اليومية ، وقال : « إنها شيء هام جدا ، ولكن لا ينبغي أن يغير الإنسان من عاداته » ، وبالفعل فقد ذهب في نفس اليوم إلى الندوة التي تعقد بمبنى التليفزيون ، وتنقل على الهواء مباشرة ، ويقدمها مقدم البرامج التليفزيوني الشهير خيسوس إرميدا ضمن برنامج طويل ( حوالي ساعتين من الرابعة حتى السادسة مساء ) عنوانه « على طريقي » . وقد قال للمجتمعين في هذه الندوة أو المسامرة : « عندي موعد على العشاء في الغد وقد أخبرتهم أنني ذاهب ، وكل ما سيحدث هو أنني سوف أكل الضعف ، وكان من المقرر أن أحضر برنامج إرميدا وها أنتم ترونني بينكم ، لا ينبغي أن يفقد الإنسان رباطة جأشه . يجب أن يكون خالدا » ، وفي المساء كان عليه بصفته عضوا في أكاديمية اللغة الأسبانية ( المجمع اللغوي ) أن يحضر الاجتماع الدوري كل خميس ، وعندما أوف موعد الاجتماع وكان ساعتئذ في مؤتمر صحفي بفندق ميجيل أنخل في مدريد قال : « إن



الواجب هو الواجب ، ثم أضاف فى دعابة : « ولا تنسوا أن هذا هو راتبى الثابت الوحيد » . وفعلًا توجه إلى مبنى الأكاديمية ، بجوار متحف البرادو الشهير ، فى صحبة الكاتب الأكاديمى جريجوريو مارانيون الذى كان قد أهده فى عام ١٩٤٨ كتابه « رحلة إلى القرية » . وهكذا عقدت الأكاديمية جلستها العادية وكأنه يوم عادى ، وإن كان الأكاديميون قد أظهروا فرحهم الشديد وسعادتهم الغامرة بحصول زميلهم كاميلو على أرفع وأشهر جائزة عالمية .

ويبدو أن كاميلو خوسيه ثيلا كان يحلم بهذه الجائزة منذ شبابه المبكر ، فعندما كان عمره خمسة وعشرين عاما ، وعلى وشك أن يموت بداء الصدر قال لصديقه ثيسار جونتاليث روانو فى مقهى خيخون الأسطورى : « إسمع يا ثيسار ، أنا مستعد أن أدفع من أجل جائزة نوبل كل الأموال التى تمنحها نوبل » لكنه الآن ، بعد حوالى ثمانية وأربعين عاما من هذه الواقعة ، لن يدفع شيئا من أجل نوبل ، وإنما سوف يتوجه إلى استكهولم عاصمة السويد يوم ١٠ ديسمبر القادم كي يتسلم جائزته ويلقى كلمته فى الأكاديمية السويدية خلال الاحتفال المهيّب الذى يقام بهذه المناسبة . وفى هذا الصدد صرح قائلاً : « بالطبع سأكون حاضرا ، وسوف أرتدى البدلة الرسمية التى تتطلبها المناسبة » .

### لم يحصل على أرفع جائزة إسبانية

ومن المفارقات العجيبة أن الرواية التى أهلتها للحصول على جائزة نوبل ، وأشادت بها لجنة الأكاديمية السويدية ، هى روايته الأولى « عائلة باسكوال دوارتى » تقدم بها عام ١٩٤٣ للحصول على الجائزة القومية للأدب ، فى أسبانيا فردتها له لجنة المحكمين دون أن تكلف نفسها فتح المخطوط ، وعندما سئل ثيلا عن ذلك يوم حصوله على الجائزة قال : « إن هذا يدل



على أن الإنسان لا يجب أن يتقدم للجوائز ، كما أنه لم يحصل على أرفع جائزة تمنح لكتاب اللغة الأسبانية في كل من اسبانيا وأمريكا اللاتينية وهي جائزة « ميغيل دي سرقانتيس » صاحب القصة الشهيرة « دون كيخوته » ، وإن كان قد حصل على الجائزة القومية للأدب عام ١٩٨٤ ، وعلى جائزة أمير استورياس ( لقب ولي العهد دون فيليب ) للأدب عام ١٩٨٧ ، ولكنهما جائزتان محليتان ، ولهذا تكلم ثيلا كثيرا يوم في مؤتمرات الصحفية عن الجوائز ، وعن داء الحسد الذي يرى الأسبان أنهم مصابون به ، فقال عن الجوائز : « إذا كانوا لم يمنحوني جائزة سرقانتيس فهذا يدخل ضمن التقاليد الأسبانية ، مثلما يُقتل آل كيندى في الولايات المتحدة الأمريكية . لقد كنت أخشى أن اتحول أيضا إلى مرشح دائم لجائزة نوبل . إن الجوائز لم تعجبني أبدا ، وخاصة تلك التي يجب على المرء أن يتقدم لها ، لقد أعطوني الجائزة القومية للأدب متأخرة عن موعدا أربعين عاما ، وهذا لا يعنى أنى غير سعيد بجائزة نوبل ، إن جائزة سرقانتيس لاتشغلنى ، فليفعلوا ما يريدون » .

وفيما يتعلق بأوضاع الكتاب في أسبانيا ، وأنه لا كرامة لنبي في وطنه عتب على الصحافة الأسبانية أنها لم تكن تذكره ضمن المرشحين لجائزة نوبل ، وقال إن الأسبان فيهم سذج كثيرون يهللون ويصفقون عندما يدور الحديث عن كاتب أنجلوسكسونى أو عن كتاب من بلدان أخرى لكنهم لا ينظرون أبدا إلى ماحولهم » ، وقال : « إن أسبانيا بلد جميل جدا وشديد المفارقات » .

وبحصول ثيلا على جائزة نوبل يصبح خامس الحاصلين عليها من أدباء أسبانيا وهم :

١ - الكاتب المسرحى خوسيه إتشيجاراي ( ١٨٣٢ - ١٩١٦ م ) الذى فاز بها عام ١٩٠٤ ، ومن أشهر أعماله



« زوجة المنتقم » ، ومن العجيب أن بعض أبناء جيله عندما علموا بفوزه بالجائزة نظموا مظاهرة ضد هذا المنح .

٢ - الكاتب المسرحي خايننتو بينابينتى ( ١٨٦٦ - ١٩٥٤ م ) وقد فاز بها عام ١٩٢٢ ، ومن أشهر أعماله مسرحية « الدنيا مصالح » ، و « المدنسة » ، وهما مترجمتان إلى اللغة العربية .

٣ - الشاعر خوان رامون خمينيث ( ١٨٨١ - ١٩٥٨ م ) ومن أشهر أعماله الشعرية « يوميات شاعر حديث الزواج » ، وهناك كتابه الشهير « حمارى وأنا » من الشعر المنثور . وقد فاز بالجائزة عام ١٩٥٦ .

٤ - الشاعر بيثينتى ألكساندر ( ١٨٩٨ - ١٩٨٤ م ) وهو من جيل ١٩٢٧ ، وزميل لوركا وخورخى جيين ، ومن أبرز أعماله « عاطفة الأرض » و « سيوف مثل الشفاة » . وقد حصل على الجائزة عام ١٩٧٧ .

## مسيرة حياة

وقد ولد كاميلو خوسيه ثيلا فى قرية إيريا فلافيا التابعة لمركز بادرون فى محافظة لاكورونيا ، وهى محافظة تابعة لمنطقة جاليسيا ( أو كما كان يسميها العرب جليقية ) فى شمال أسبانيا فى الحادى عشر من شهر مايو عام ١٩١٦ . من أب أسبانى وأم إنجليزية . وعندما كان عمره تسع سنوات انتقلت الأسرة إلى مدريد ، ومنذ أن كان صغيرا كانت ثقته بنفسه تسبب له الكثير من المشكلات ولهذا طرد من أربع مدارس ، ولكن أسرته كانت تشجعه وتساعدته فى أن يمضى إلى الأمام ، وعندما حصل على الثانوية التحق بكلية الطب فى جامعة مدريد ( كومبلتنسى ) ولكنه قطع دراسته بهذه الكلية عندما وجد ميلا إلى الأدب . وكانت الحرب الأهلية الأسبانية قد بدأت عام ١٩٣٦ ، فانقطع عن الدراسة طوال فترة الحرب ، وكان قد أصيب بداء الصدر فرجع إلى قريته للاستشفاء ، حتى وضعت الحرب أوزارها عام ١٩٣٩ ،



فعاد إلى مدريد والتحق بكلية الحقوق بالرغم من أنه كان يتجه بقوة إلى الأدب ، وفي عام ١٩٤٢ نشر روايته الأولى « عائلة باسكوال دوارتى » . ثم نشر روايتين أخريين خلال عقد الأربعينيات هما « خيمة الراحة » ( ١٩٤٣ ) و « مسيرات لاثاريو دى تورميس وإحباطاته الجديدة » ( ١٩٤٤ ) وهما روايتان يقل مستواه الفنى عن الرواية الأولى . وهذا من الأمور الغريبة فعلا ، أن تصبح روايته الأولى المنشورة ، وله من العمر ست وعشرون سنة هى من أهم أعماله إن لم تكن أهمها على الإطلاق ، ثم نشر كتابه الأول فى أدب الرحلات عام ١٩٤٨ ، وهو كتاب « رحلة إلى القرية » ، وهذه القرية هى بالفعل قرية واقعية مازالت تحمل أسمها العربى مكتوبا بحروف لاتينية ALCARIA ، وتتبع محافظة وادى الحجارة ( وهو أيضا اسم عربى ) الواقعة على بعد حوالى خمسين كيلومترا من العاصمة مدريد . وجدير بالذكر أن هذه القرية هى مكان الإقامة الدائمة حاليا لخوسيه ثيلا . وهذا الكتاب الأول فى أدب الرحلات أكمله ثيلا بكتاب ثان فى نفس الموضوع تحت عنوان « رحلة جديدة إلى القرية » صدر عام ١٩٨٦ .

وفى عام ١٩٥١ أصدر روايته الهامة « خلية النحل » . وظلت تتوالى كتب خوسيه ثيلا منذ عام ١٩٤٢ حتى الآن ، وبلغت فى مجملها حوالى مائة كتاب ، ما بين روايات ( ١٤ رواية ) وكتب فى أدب الرحلات ، ذكرنا منها اثنين ، وهناك أيضا أعمال أخرى فى هذا المجال يحسن ذكرها مثل كتاب « يهود ومسلمون ، ومسيحيون » ( ١٩٥٦ ) و « الرحلة الأندلسية الأولى » ( ١٩٥٩ ) و « رحلة إلى برانس لاردة » . وبهذا نرى أن ثيلا فى هذه الكتب يحاول أن يغطى أرض أسبانيا من جنوبها إلى شمالها بحثا عن العادات والتقاليد والقيم وأنماط الحياة المتأصلة فى التربة الأسبانية منذ القدم ، ومنذ أن كانت أسبانيا بلدا ازدهرت على أرضها حضارات متنوعة ومختلفة من السلتيين إلى القاندالوس ،



إلى الرومان ، إلى القوط الغربيين ، إلى العرب المسلمين .. إلخ .

ولخوسيه ثيلا كتب في الشعر ، وفي القصة القصيرة ، وفي المقال الأدبي ، والمقال الصحفي ، واللوحات التعبيرية ، والدراسات ، بل إن له كتابين يضمنان كل ما عرف في أسبانيا من كلمات وتعبيرات جنسية أو سوقية وهما : « القاموس السرى » ( ١٩٦٨ ) ، و « دائرة معارف الشهوة » ( ١٩٧٦ ) وهو كتاب من مجلدين كبيرين ، وهذان الكتابان يضعان أيدينا على خاصية هامة من خصائص هذا الكاتب الأسباني ، وهي أنه يمثل خير تمثيل نموذج الإنسان الغربي الحالي المتحرر تماما من أى أعراف ، أو تقاليد أو قيم أخلاقية بالمفهوم الدينى ، وله جمل مشهورة فى مجال الجنس والنساء لا نستطيع أن ننقلها هنا ، ثم إنه يمثل النموذج الغربى فى سلوكه اليومى ، يلتزم بالواجب وبالكلمة وبالفعل التزاما صارما ويحاسب نفسه على ذلك حسابا شديدا ولكنه فى مجال السلوك الفردى يمضى على هواه ، فيصادق فتاة من عمر ابنائه بل أحفاده تدعى مادينا كاستانيو تصحبه فى كل مكان لدرجة أنها حضرت معه لقاء الأكاديمية وجلست إلى جواره والسعادة تغمرها ، بينما زوجته العجوز الشهيرة قابعة فى البيت ، ومع ذلك لم ير زملاؤه فى هذا ، وهم من كبار الكتاب والمفكرين ، ما يחדش الحياء أو يقلل من قيمة الرجل . ولا يرى المجتمع الأسباني أو الغربى بشكل عام أى عيب فى ذلك ، فهذه طبيعة الحياة فى المجتمعات الأوروبية .

وخوسيه ثيلا من الكتاب المشهورين جدا فى أسبانيا ، فكل الناس تعرفه ، من قرعوا أدبه ، ومن لم يقرعوا له كلمة واحدة ، فانت تراه وتسمعه فى كل مكان ، فى التلفزيون والإذاعة ، وعلى صفحات الصحف والمجلات ، بل إن له أيضا نصيبا فى المجلات التى تسمى بمجلات القلب . وله أصدقاء كثيرون من جيله ومن



الأجيال التالية ، ومن أشهر أصدقائه الحميمين الروائي بيو باروخا ( من جيل ١٨٩٨ ) والفنان الأشهر بابلو بيكاسو وللأسف فإنهما ليسا على قيد الحياة حتى يشاركاه هذه الفرحة بالجائزة العالمية .

وفيما يتعلق بالكتاب الآخرين الكبار من أبناء جيله أو من السابقين ، فعل خوسيه ثيلا مثلما فعل في العام الماضي ، الكاتب الكبير نجيب محفوظ ، فمثلما قال محفوظ إن العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم كانوا أحق بالجائزة منى ، ذكر خوسيه ثيلا في المؤتمر الصحفى الذى أقيم بفندق ميجيل أنخل فى مدريد الكتاب الأسبان الكبار الذين سبقوه ولم يحصلوا على جائزة نوبل مثل بيو باروخا ، وبينيتو بيريث جالدوس ، وثايبى انكلان ، كما ذكر أبناء جيله الذين مازالوا على قيد الحياة ويستحقون هذه الجائزة مثل ميجيل ديليبس ، وتورينتى بايستير . وأنا ماريا ماتوتى وغيرهم .

### أهمية أدبه

حدث ذات مرة أن تخلى كاميلو خوسيه ثيلا عن صفة التواضع التى هى من ألزم الصفات للإنسان ، فقال : « أنا أعتبر نفسى أهم روائى منذ جيل ١٨٩٨ ، وإنه ليرعبنى أن أنظر إلى السهولة التى أكتب بها » ، وأحس ثيلا أنه تجاوز المطلوب بهذه الكلمات ، فنظر إلى الحاضرين وقال : « أرجو المعذرة لأن هذه العبارة فلتت منى » .

والحق أن ثيلا من الكتاب الذين يكثر الجدل حولهم ، فالبعض يعتبرونه أهم كتاب وروائى ما بعد الحرب الأهلية الأسبانية ويرون أن روايته الأولى « عائلة باسكوال دوارتى » ( ١٩٤٢ ) هى أول رواية تمثلت فيها ظروف تلك الفترة خير تمثيل ، بينما يرى الآخرون أنه كاتب فظيع ، مشغول أو بالأحرى يتسلى



بتقديم صورة كاريكاتيرية وبذيئة عن الواقع الأسباني ، متيم  
بالتعبيرات الجافة والفضائح ، وأنه بعد أن قدم روايته « خلية  
النحل » عام ١٩٥١ سقط في هوة التجريبية المجانية ، وقد  
استكثر عليه الشاعر الشهير رفائيل ألبرتي جائزة نوبل ، وقال :  
إن هناك آخرين غيره يستحقونها أكثر منه ، ولكن الروائي ميجيل  
ديليبيس ( من أبناء جيله ) قال : « لقد أحدث ثورة في الرواية  
الأسبانية باستيعابه لعملية التحول من القرن التاسع عشر إلى  
الرواية الحديثة » ، وقال مانويل ألكار ( من رملاء الأكاديمية ) :  
« إنه أحد الروائيين الكبار في لغتنا ، ومن جهة أسلوبه قد لانجد  
له منافسا »

ومن الخصائص التي تميز ثيلا أنه غزير الإنتاج ، كما نرى من  
قائمة الكتب التي أصدرها ، وعندما كان عمره أربعين عاما كانت  
كتبه المنشورة تبلغ أكثر من عشرين كتابا

ولعل من أهم مميزاته أنه أحد صناع اللغة الكبار ، وهذه هي  
فضيلته الكبرى الأولى ، وسلاحه الحقيقي . فقد فاز بها في كل  
المعارك ، منذ روايته الأولى حتى الآن . فقد رفض ثيلا منذ  
البداية مسألة « المضمون » كشكل من أشكال جذب القارئ ،  
ولهذا نجد المضمون في رواية « عائلة باسكوال دوارتي »  
مختصرا جدا ، ويمكن أن نلخصه في نصف صفحة مثلا ، وجاء  
شغله الأساسي في اللغة والأسلوب والحبكة الروائية ، وتغيير  
الأنماط التقليدية المتبعة ، ولهذا فإن الكثيرين يرون أن الطابع  
الواقعي الذي تبدأ به الرواية هو واقعية في الظاهر فقط ، ذلك  
لأن الرواية تتحول منذ الجريمة الأولى التي ارتكبها باسكوال  
دوارتي إلى مأساة ( تراجيديا ) حقيقية ، مأساة أخرى ، ونجد  
الكاتب في هذه الرواية أيضا يكسر النسق التقليدي الأفقي للفن  
الروائي ، ولا نجد أنفسنا أمام نص واحد ، وإنما نحن أمام  
سلسلة من النصوص تصل بنا إلى خاتمة محددة في كل كتابات  
ثيلا وهي ضرورة خلق « تحولات » للقضاء على الطابع



الدوجماطيقى ( القاعدى الصارم ) الذى ألقى على تاريخ اسبانيا ظلالا قوية من العنف واللا تسامح . ولهذا فإن ثيلا يعتبر من الكتاب الأوربيين ذوى الاتجاهات الراديكالية ، الذين يعبرون فى كتاباتهم عن رؤية راديكالية ( جذرية إن صحت هذه الترجمة ) وأخلاق راديكالية أيضا .

أما بطل رواية « عائلة باسكوال دوارتى » ( واسمه هكذا أيضا ) هو مجرم رغم أنفه ، أى أنه ضحية الظروف الاجتماعية المتدهورة ، والعلاقات الشائثة المحيطة به ، ولهذا تبدأ الرواية بهذه الكلمات : « أنا ياسيدى لست سيئا ، بالرغم من أنه لا تنقصنى الأسدباب لكى أكون كذلك ، فكلنا ، نحن البشر الفانين ، نأتى من أرومة واحدة عندما نولد ، ومع ذلك عندما نبدأ فى النمو يحلو للقدّر أن يمتلئنا وكأننا من الشمع ويوجه مصائرنا فى طرق متشعبة تؤدى إلى نهاية واحدة وهى الموت ، ثمّة أناس يطلب منهم أن يمشوا فى طريق الأزهار ، وأناس يؤمرون بالمضى فى طريق الحرشف والحجار ، فهؤلاء يتمتعون بالنظرة الهادئة ، وهم فى أريج سعادتهم يبتسمون ابتسامة البرىء ، وأولئك يغالبون شمس البطحاء الخارقة ، ويقطبون الجبين مثل الوحوش دفاعا عن النفس . فهناك فرق كبير بين تزيين الجسد بأحمر الخدود والروائح العطرية ، وبين عمل هذا بالوشم الذى لايمكن إزالته بعد ذلك » .

وباسكوال دوارتى ، الذى مضى فى مسلسل الجريمة حتى قتل أمه فى النهاية ، يشبه إلى حد كبير بطل رواية الغريب لألبير كامى ، كما يشبه ، إلى حد كبير أيضا ، سعيد مهران بطل « اللص والكلاب » لأديبنا العالمى نجيب محفوظ ، فكل منهما أصبح مجرما رغم أنفه ، وهو ضحية الظروف الاجتماعية التى مرت به ومر بها ، ومن العجيب أن كلا الكاتبين المصرى والاسبانى ينسبان إلى جيل واحد ( ولد محفوظ عام ١٩١١ وثيلا عام ١٩١٦ ) وبدأت تظهر أعمال كل منهما فى وقت واحد تقريبا .



أما الرواية الأخرى التى رسخت بها قدم خوسيه ثيلا فى هذا الفن وتاكدت شهرته فهى رواية « خلية النحل » التى صدرت عام ١٩٥١ ، وهى رواية تحكى صورة الحياة الفظيعة فى مدريد خلال فترة الأربعينيات ، وبالرغم من هذا الأساس الواقعى فإنها كانت رواية مجددة بكل معنى الكلمة حتى اعتبرها الكثير من النقاد أهم رواية صدرت فى أسبانيا منذ عام ١٩٣٦ حتى تاريخ صدورها ، وقد مكث المؤلف خمس سنوات فى كتابتها ، وهذه الرواية - كما ذكر المؤلف نفسه فى أحد كتبه النظرية - عبارة عن « قطعة من الحياة تروى خطوة خطوة بدون تحفظات أو مأسى غريبة ، أو تعاطف » إنها تمضى مثلما تمضى الحياة ، وبهذا يمكن أن يقال إنها تنسب إلى ما يسمى باتجاه « الشيئية » أو الموضوعية الصارمة التى تبدو قريبة من لغة العلم .

وفى هذه الرواية ينقل ثيلا الواقع ويغربله بتكنيك رائع متطور وحس روائى مدهش بحثا عن كل ماله جوهر ودلالة ، وتطرح هذه الرواية قضية القيمة العلمية أو التوجه العلمى لهذا النوع الأدبى ، وقد استخدم فيها تقنيات حديثة مثل مونولوج فوكنر ، وتركيز البصر تجاه الشيء فى حد ذاته ، وأفاد من تقنيات كبار الكتاب الذين أحدثوا انعطافات خطيرة فى الفن الروائى مثل بلزاك ، وديكنز ، وتولستوى ، وكافكا ، وبروست ، وكامى وغيرهم ، وهذه الرواية يفخر بها كاميلو خوسيه ثيلا دائما ويقول : « لقد كتبت عملا شاملا ، كان يمكن أن يجعلنى أتوقف بعده ولا أكتب شيئا غيره » .

ولكن ثيلا ظل منذ ذلك الحين يصدر الكثير من الأعمال الهامة التى لا يتسع المقام للحديث عنها فى هذا المقام .

ويحسن أن نختم هذه الدراسة بكلمة قالها ثيلا يوم الخميس ١٩ أكتوبر ، أى يوم نوبل : « أنا رجل عمرى ثلاثة وسبعون عاما ، إنك كان هذا يفيدك فى شيء ، والإنسان يمتلك حيوات



كثيرة مثل السنوات ، وانا اليوم املك الحياة رقم ٧٣ ، .  
د . حامد ابواحمد  
القاهرة في ٢٣ / ١٠ / ١٩٨٩

### أعماله مقسمة ومرتبطة حسب السنوات

السنة	الرواية
١٩٤٢	أسرة باسكوال دوارتى
١٩٤٣	خيمة الراحة
١٩٤٤	مسيرات لاثاريودى تورميس الجديدة وإحباطاته
١٩٥١	الخلية
١٩٥٣	السيد كلادويك يتحدث مع ابنه
١٩٥٥	لاكاتيرا
١٩٥٨	من الحقب التاريخية لأسبانيا ، العميان ، المجانين
١٩٦٢	زلاقة الجوعى
١٩٦٥	المواطن اسخريوط ريكلوس
١٩٦٩	سان كاميلو ١٩٣٦
١٩٧٣	مهنة الظلمات
١٩٧٦	ملف أصحاب التدييث ( من ديوس )
١٩٨٣	رقصة لميتين
١٩٨٨	كريستو أريزونا
	المقال ( دراسات )
١٩٥٤	حلم وتخيالات
١٩٦١	أربع شخصيات من جيل ٩٨
١٩٦٩	فى خدمة شىء
١٩٧٣	جولة مع أسبانيا

## قواميس

القاموس السرى	١٩٦٨
قاموس الشهوة	١٩٧٦
أشعار :	
سحق الضوء المريب للنهار	١٩٤٥
أغانى القرية ALCARIA	١٩٤٨
الدير والكلمة	١٩٥٠
كتب رحلات :	
رحلة إلى القرية ALCARIA	١٩٤٨
من مينيوا إلى بيداسوا	١٩٥٢
أقيلا	١٩٥٢
يهود ، مسلمون ، ومسيحيون	١٩٥٦
الرحلة الأندلسية الأولى	١٩٥٩
دفاتر نهر وادى رامة	١٩٦٠
مدريد	١٩٦٥
متشرد فى قشتالة	١٩٦٥
صفحات من الجغرافيا الشاردة	١٩٦٥
رحلة إلى برانس لاردة	١٩٦٥
رحلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية	١٩٦٧
برشلونة	١٩٧٥
رحلة جديدة إلى القرية ALCARIA	١٩٨٥
مسرح :	
ماريا سابينا ، خطابة بالشعر	١٩٦٥
عربة القت ، ومخترع المقصلة	١٩٦٩



## حكايات وقصص قصيرة

هذه السحب التي تمضي	١٩٤٥
جريمة الشرطي الجميلة واكتشافات أخرى	١٩٤٧
الجليقي وعصابته ومذكرات أخرى	١٩٥١
تيموتيو ، غير المفهوم	١٩٥٢
سانتا بيبيانا ، ٣٧ ، جاز في كل دور	١٩٥٢
قهوة الفنانين وقصص أخرى	١٩٥٣
قائمة اكتشافات	١٩٥٣
طلحونة الهواء	١٩٥٦
مسلسل العماليق العاشقة	١٩٦٠
حزمة من الحكايات بدون حب	١٩٦٢
إحدى عشرة قصة كرة قدم	١٩٦٣
مشاهد أمومة جديدة	١٩٦٥
قصص تقرأ بعد دخول الحمام	١٩٧٤
رسالة من رجل ارشيدونا العبيط	١٩٧٧
مذكرات	
السهلة المنال	١٩٥٩
الأصدقاء القدامى	١٩٦١
مقالات في كتب	
طولة مضطربة	١٩٤٥
صفحتي المفضلة	١٩٥٦
صندوق الخياط	١٩٥٦
وقت الفراغ	١٩٥٦
مقبرة اليتامى	١٩٦٣
الزمر المناسبة ومظاهر أخرى وأفعال عمياء	١٩٦٣

١٩٦٤	مصارعة فى الصالون
١٩٧٢	كرة العالم
١٩٧٣	التخت الصدىء
١٩٨٨	حمار بوريدان

### حيثيات الفوز بالجائزة

قالت الأكاديمية السويدية فى حيثيات منحها جائزة نوبل فى الآداب لعام ١٩٨٩ لكاميلو خوسيه ثيلا : « لقد منحت الجائزة لأبرز شخصية جددت الأدب فى أسبانيا فى فترة ما بعد الحرب ، إن مشواره الأدبى يدخل فى سياق الظروف التاريخية التى عاشها ، ويشير إلى أن مسيراته الأولى تأتى فى إطار الحرب الأهلية الأسبانية التى قسمت البلاد إلى معسكرين متخاصمين بشدة لدرجة أن الروابط غير المنفصمة للصدقة أو القرابة بين الناس كانت تشوه أو تفصم ، وقد أثرت هذه الحرب عليه تأثيرا شديدا ، وجرح خلالها جرحا خطيرا .

وتشير الأكاديمية بعد ذلك إلى روح الكاتب القلقة ، التى تمتاز فيها الرغبة الواضحة فى التجريب مع الموقف المثير .

ثم تضعه الأكاديمية فى سياق التراث الأسباني المتصل بالمزاح الساخر ، وهو - كما تشير الأكاديمية - يمثل الوجه الآخر للإحباط .

وترى الأكاديمية أن التعاطف أو الشعور بالإشفاق إزاء المعاناة التى لا حل لها عند الجنس البشرى ، والذى يكمن فى أعمال ثيلا ، يظهر مع ذلك بشكل مسيطر عليه . وتستخدم الأكاديمية هنا لفظة « كونترول » .



وقالت الأكاديمية : « إن الخصائص التي يتميز بها الموقف الإبداعي عند ثيلا متضمنة كلها في الكتاب الذي اشتهر به وهو رواية « عائلة باسكوال دوارتي » ، التي تقول عنها الأكاديمية : « إنها رواية خشنة ، فظيعة في بعض المشاهد ، وبالرغم من فرض الرقابة عليها وتحريمها فقد كان لها صدى غير مسبوق ، لدرجة أنها تعتبر بعد الكيخوته ( دون كيشوت ) أكثر رواية مقروءة في الأدب الأسباني .

## باسكوال دوارتى ، نظيفا

باسكوال دوارتى ، لأنه ظل وقتا طويلا دون أن يغير ملابسه ، صار قذرا وشبه مجهول . إن عبارة نظيف جدا ، أو ما يمكن أن يقال حسن الهمدام ، لم تنطبق عليه أبدا ، هذا صحيح ، لكن ليس من طبعه أيضا أن يكون شديد القذارة على النحو الذى رأيناه عليه أخيرا ، فالكتب التى تطبع طباعات كثيرة ينتهى بها الحال دائما بأن تلوث ، ومن ثم فإنه من الأنسب أن نغسل لها وجهها ، بين كل فترة وأخرى ، حتى تعود إلى بكارتها ، وهذا الأمر المتعلق بالصحة فن مخادع لكنه ضرورى ، وهو فن ينبغى أن نستخدمه بحذر حتى لا نقع فى براثنه البتوحشة مثل براثن الرذيلة ، وإن لم يكن من قبيل الحذر أن نهرب منه أو نقلل من شأنه ، ففي مدينة أورينسى كان يعيش إنسان يدعى السيد دوموآلدو فاكيريتا دوكى اشتهر بتقريبه للمسئول عن قيادة الماسونية فى الحضارة الأسبانية العريقة ، وبما أن الناس لم تكن تعرف جيدا ما الذى تعنيه كلمة العريقة هذه ، فقد تركوه يتكلم ، أما السيد دومو آلدو ، الذى كان شديد التظاهر ، فقد مات من بثور فى فتحة الشرج ، وهى بثور ربما كان فى الإمكان علاجها ، حسب العلم ، بقليل من الصابون ، وبالنسبة لى فإنه لا يروق لى أن تكون ذكرى باسكوال دوارتى هكذا - مسكين باسكوال دوارتى ، فقد مات مشنوقا - وأن يلقى حتفه على طريقة السيد دومو آلدو ، نتيجة خوفه من الماء .

ونحن الكتاب ، فى العادة ، نقوم بتصحيح مسودات طبعاتنا الأولى ، وحتى فى بعض الأحيان لا يحدث هذا ، والطبعات التالية نتركها أمانة فى يد الناشرين ، الذين يعهدون بها بدورهم



( ربما بسبب هوايتهم المعروفة للغبة كرة الصدة النبيلة  
المسلية ) إلى صاحب المطبعة ، الذي يعتمد على مصحح  
المسودات ، وهذا الأخير ، لأنه على رأس المجموعة ، يطلب  
مساعدة ابن العم الفقير الذي نعرفه جميعا ، وهذا ، لأنه هو  
الآخر كسول ، يرسل المسودة إلى أحد جيرانه ، والنتيجة هي أن  
النص في النهاية لا يتعرف عليه صاحبه نفسه : وهو في حالتنا  
هذه خادمكم الأمين ، وعادة فإن الكتب تزداد تحسنا بهذا التعاون  
المجاني الخفي ، لكننا نحن المؤلفين لا نعترف بذلك إلا نادرا  
وغالبا ما نفضل ، ربما لأننا مسكونون بروح الكبر ، ذلك الذي كنا  
قد كتبناه مهما بلغ حظه من الجودة أو السوء .

أحيانا أفكر أن الكتابة ليست أكثر من تجميع وتبويب ، وأن  
الكتب تظل تكتب دائما ، أحيانا بنفسها ، حتى قبل أن نبدأ ماديا  
في كتابتها ، وأيضا بعد أن نضع لها نقطتها النهائية ، ومحصول  
الأحاسيس يصفى في غربال به آلاف المسام في الرأس وعندما  
ينضج هذا المحصول ويبلغ مداه يتجمع حروفا على الورق  
ويولد الكتاب . والذي يحدث هو أن الكتاب ، بعد أن يولد ، يظل  
ينمو - باتساق أو بشكل غير منظم - ويتطور ، في رأس مؤلفه ،  
في الخيال أو في إحساس القراء ، وأيضا على صفحات طبعاته  
الأخيرة ، وهذه الزيادات ليست على وتيرة واحدة ، هذا  
صحيح ، ولكنها جميعا تجعله يزيد ، فالطفل ينمو بطريقة  
مختلفة عن طريقة السرطان ، ولكن السرطان - وهذا هو السيء -  
ينمو أيضا .

وبالنسبة لكتاب باسكوال دوارتي فقد اضطرت تقريبا - في  
هذه المناسبة - أن ألجأ إلى الجراحة لكي أقتطع منه ما يفيض  
عن حاجته ولكي أعيد له بعض ما أخذ منه ، ولحسن الحظ ، في  
النهاية ، كانت غسلة جيدة بالصابون كافية تماما . بالرغم من أنني  
الآن ، عندما أعيد قراءته بعد مرور سنوات ، تتزاحم في داخلي

الإغراءات حتى أقوم بزخرفته بكثير من الدقة والعناية ، إلا أنى فضلت أن أترك الأشياء - فى الأساس - كما كانت عليه وألا أحركها قيد أنملة ، لا تحركه ، فهو يافع ويمكن أن يفقد رواءه - هكذا سمعت صوتا قادمًا من حقول سلمنقة ، يعلو قلبلا على المشهد الأكستريمى ( نسبة إلى منطقة اكستريمادورا ) لباسكوال دوارتى . وفضلا عن ذلك فإن رأسى ليست مثلما كانت منذ عشرين عاما ، وهذا الكتاب نتاج لرأسى تلك لا لرأسى الحالية ، ومن ثم ينبغى أن نحترم التقويم .

كان مونتى MONTAIGNE ( الكاتب الفرنسى ، يسمى النظام فضيلة حزينة ومظلمة ، ولعل مونتى قد خلط النظام بقناعه الخاص ، وبمظهريته المجردة ، وهو موقف شاسع بين الناس المعروفين بالنظام ، أى بين هؤلاء الذين بطلافون النظام على كل ما ليس إيقاعا وإنما هو سكون ، ونظرا لأنهم لا يميزون بين العجز ( بضم الجيم ) وبين أوائل فصول السيرة الأربعة فإنهم يقطعون الفجل من أوراقه ( أى يسبثون الأنهم ) وأنا أعتقد أن النظام شيء مبهج وحى ومضى ، أما الشيء الخربز والميت والمعتم فهو الذى يأتى عادة ، احتيالا ونفخيمًا ، بواسطة النظام ، بينما هو فى الواقع لا يعدو أن يكون فراغا ، فالفلك آية عجيبة وجميلة من آيات النظام ، أما النظام العام ، فعلى العكس من ذلك ، لا يعدو أن يكون ، فى غالب الأحيان ، مجرد فوضى صامتة يراد لها أن تبدو وكأنها لون رائق من ألوان النظام ، بالرغم من أنه لا أحد يعتقد فى ذلك على الإطلاق

ولكن إذا كنت أعتقد أحيانا أن الكتابة والتنظيم شيء واحد ، فإنى فى أحيان أخرى أشك فى عكس ذلك ، بل يبلغ بى الأمر أن أؤمن بالإلهام الذى يحدثنا عنه الشعراء الرومانتيكيون - هؤلاء المزيفون الكبار - والنقاد الرومانتيكيون - فرسان الإبهام البواسل - وأنا أفهم أنه من المطلوب - ولا أدرى أمن الحكمة أيضا - ألا أفكر دائما فى الجانب المتعلق بالصفة ، وإنما على



العكس من ذلك ، أغير قليلا فى جانب الإسم أو الشيء  
الجوهري ، وأقول ذلك اعتمادا على أنى لا أصاب بالدهشة إذا  
استطعت الوصول إلى إدخال الإلهام فى نطاق النظام .

وفيما يتعلق بروايتى « عائلة باسكوال دوارتى » ، وبعد  
الكثير الذى اشتغلته فيها ، سوف أحاول ألا ألمسها بعد ، فنصها  
الأصلى يبقى كما هو ( وربما يكون أقل حزقة أن أقول : ثابتا )  
فى هذه الطبعة ، وسأحاول أن أستشهد بها دائما كلما احتجت  
إلى ذلك ، أما ترجماتها فينبغى أن أقبلها كما هى ، اللهم إلا إذا  
فضل المترجمون فى المستقبل ، أن يلتزموا بهذا النص الحالى ،  
فإنى أشكرهم على ذلك ، وعلى أية حال فإنى لم أعترض أبدا على  
أية ترجمات ، لأنى لكى أراجعها أو أعلق عليها محتاج إلى  
مجموعة من المعارف بينى وبينها بون بعيد ، ففى أيام إقامتى فى  
مدينة لاكورونيا تعرفت على حارس بلدية وأعجبت به . كان  
يسمى كاستيلو ، وكان يحمل على كم ذراعه سبعة أعلام صغيرة  
كل علم منها ينسب إلى بلد يتحدث لغته ، وأنا لست كذلك ، ولا  
يسوءنى أن أعترف أنى لم أصالح للخدمة فى الحرس المدنى ، أو  
على الأقل الحرس المدنى اللاكورونى ، فربما فى مدن أخرى مثل  
جيان أو كاثيرس لا يشترطون كل هذه الطلبات والمعارف .

وأخيرا : ها هو باسكوال دوارتى نظيفا ، وهذا هو الأهم . الآن  
يستعد كى يبدأ ليموت من جديد ، شيئا فشيئا .

بالمادى مايوركا ، فى ٢٣ أغسطس ١٩٦٠

إهداء ثيلا  
أهدى هذه الطبعة إلى أعدائي الذين  
ساعدوني كثيرا في مسيرتي .



## مذكرة للناسخ

يبدو لي أنه قد جاءت الفرصة لتقديم مذكرات باسكوال دوارتى للمطبعة ، ولو أنني قدمتها من قبل فربما كان في ذلك بعض الاندفاع ، فلم أشأ أن أتسرع في إعدادها ، لأن كل الأشياء تظهر في أوانها ، بما في ذلك تصحيح الأخطاء الكتابية لمخطوط ما ، ولأنه ليس من المستحسن ختام عمل تم تصميمه ، كما يقال ، على حذاء الفرس ، ولو أنني أعطيتها بعد ذلك لما وجدت عندي أي مبرر أستند عليه ، فالأشياء ينبغي أن تظهر بمجرد أن تنتهي منها .

وهذه الصفحات التي أقوم بنسخها تباعا ، بقلمى وفي منتصف عام ٣٩ ، عثرت عليها في إحدى صيدليات ألمندراليخو - والله يعلم من هي الأيادي الجاهلة التي أودعتها هنا - وقد أمسكت نفسي منذ ذلك الحين هناك ، وأخذت أترجمها وأرتبها ، ذلك لأن المخطوط كانت قراءته صعبة للغاية ، من جهة بسبب رداءة خطه ومن جهة أخرى لأنى وجدت الصفحات بدون ترقيم وغير منظمة تماما .

وأود أن يكون واضحا جيدا منذ اللحظة الأولى أنه لا ينسب إلى فى العمل الذى أقدمه اليوم للقارئ الشغوف إلا عملية النسخ ، فلم أصح ولم أضف نبذة واحدة ، لأنى أردت أن أحترم الحكاية حتى فى أسلوبها ، وقد فضلت فى بعض المشاهد الشديدة الجفاف فى العمل أن أستخدم المقص وأقطع الزائد ، وهذه الطريقة كما هو واضح ، تجنب القارئ معرفة بعض التفاصيل الصغيرة - التى لا يخسر شيئا من جهله بها - لكنها ،

على العكس من ذلك ، تعطى ميزة أن نتجنب وقوع النظر على أسرار مثيرة للاشمئزاز ، ومن ثم - وأكرر - بدا لي مناسباً أن أستخدم التهذيب بدلاً من الصقل .

أما الشخصية ، على طريقتي في الرؤية ، وربما من أجل هذا أخرجتها للنور ، فهي نموذج في السلوك ، نموذج لا يصلح للتقليد ، وإنما لكي نهرب منه ، نموذج يفيض إزاءه أى موقف من مواقف الشك ، نموذج لا يمكن إلا أن نقول أمامه :  
- هل ترى ما يفعله ؟ إذن فافعل عكس ما ينبغي .

ولكن فلنترك باسكوال دوارتى يتحدث ، فلديه أشياء هامة يحكيها لنا .



## رسالة تعلن عن إرسال المخطوط الأصلي

السيد الأستاذ / خواكين باريرا لوبيث  
مدينة ماردة

تحية طيبة وبعد

أرجو أن تستمبح لي العذر في أن أرسل لك هذه الحكاية الطويلة في طي هذه الرسالة ، التي هي أيضا طويلة في بابها ، ولكن بما أنك الوحيد من أصدقاء السيد خيسوس جونتاليث دي لا ريفا ( سامحه الله على نحو ما طلب هو الآخر السماح لي ) الذي مازلت أحفظ عنوانه ، لهذا فإنني أريد أن أرسلها لك حتى أتخلص من رفقتها ، ذلك لأنني أحترق عندما أفكر فقط كيف استطعت أن أكتبها ، ولأنني أخشى أن أرمي بها في لحظة كآبة ، من تلك اللحظات التي تنقلبني كثيرا في هذه الأيام ، ولو أنني فعلت ذلك فسوف أحول دون أن يتعلم البعض ما لم أدركه إلا ولات ساع مناصر .

وسوف أوضح قليلا ما أريد قوله ، بما أنه لسوء الحظ لا يخفى علي أن ذكر أي سوف تكون مرتبطة باللعنة أكثر من أي شيء آخر ، ولأنني أريد أن أرضي ضميري ، قدر المستطاع ، بهذا الاعتراف العام ، الذي هو بمثابة تكفير غير قليل عن الذنب ، لهذا فقد عن لي أن أروى شيئا مما أذكره عن حياتي ، ولم تكن الذاكرة في أي وقت من نقاط قوتي ، ولذلك فإنني أدرك أنه من المحتمل جدا أن أنسى أشياء كثيرة في غاية الأهمية أيضا ، ولكن بالرغم من هذا فقد قررت أن أروى ذلك الجزء الذي لا أريد له أن يمسح من رأسي ، والذي لم تبد اليد أي مقاومة عند خطه على الورق ،

وذلك لأن هناك جزءا آخر عندما حاولت أن أروييه أحسست ببوائك هائلة تسد الروح ، ومن ثم فضلت أن ألوذ بالصمت ، والآن فإنى قد نسيت ، وعندما بدأت فى كتابة هذا النوع من المذكرات أدركت أن شيئا فى حياتى - وهو موتى الذى أراد الله أن أهرع إليه - يمكن أن أروييه على نحو ما ، وكانت هناك أشياء كثيرة تدعونى إلى أن أتروى فى هذا الموضوع ، فضلا عن أنه لم يبق لى من الحياة إلا أيام قلائل ، وأستطيع أن أقسم لك بأنى أحسست فى أكثر من مرة بخور فى قواى عندما لم يسعفنى الذهن أين ينبغى أن أضع النهاية ، وقد رأيت أن الأفضل هو أن أبدأ وأن أترك النهاية للحظة التى أسقط فيها من يد الله ، وهذا ما فعلته ، واليوم ، وقد بدا لى أنى أصبت بالسأم من كل هذه الصفحات التى تربو على المائة والتى ملأتها بكلامى الفارغ ، فإنى أتوقف بشكل نهائى عن مواصلة الكتابة لكى أترك لخيالك إعادة تركيب ما بقى حتى الآن من حياتى ، وهو تركيب لا أظن أنه سوف يستعصى عليك ، لأنها بالتأكيد لن تكون إلا أياما قليلة ، ثم إنى وأنا بين هذه الجدران الأربعة ، لا أعتقد أن أشياء جديدة يمكن أن تحدث لى .

وقد ضايقتنى ، عندما بدأت أحرر لك هذه الرسالة ، فكرة أن أحدا كان يعرف فى ذلك الوقت هل يمكن أن أصل إلى نهاية حكايتى ، أو متى ينبغى أن أتوقف إذا كان الوقت الذى انقضى لم تحسب أبعاده جيدا وهذا التأكد من أن أعمالى لا بد من أن تمضى ، بالقوة ، فوق أخايد محددة سلفا ، كل هذا كان ينتشلنى من الهوة ، والآن بعد أن أصبحت قريبا من الحياة الآخرة ، جنحت أكثر إلى الاستسلام للقدر . وأسأل الله أن يمنحنى عفوه .

إنى أحس ببعض الراحة بعد أن رويت كل ماحدث لى ، وهناك لحظات كنت أشعر بأن ضميرى لا يؤنبنى بشأنها إلا قليلا .



وأنا واثق من أنك سوف تتفهم ما فضلت عدم قوله ، لأنه من الأفضل ألا تعرفه ، وإني الآن نادم لأنى أخطأت طريقى ، ولكنى لم أعد أطلب العفو فى هذه الحياة ، ولم ؟ فربما يكون من الأفضل أن تنصرفوا معى وفق ماهو قائم ، لأنه من المحتمل جدا أنه فى حالة نكصكم عن ذلك أعود إلى مسيرتى من جديد ، لا أريد أن أطلب العفو ، لأن ما علمته لى الحياة من سوء يتجاوز الحد ، وأنا ضعيف جدا لا أقاوم الإغراء . واقرأ ماهو مكتوب فى الكتب السماوية .

وتقبل ياسيد خواكين ، مع هذه اللفة من الورق المكتوب ، عذرى لأنى توجهت إليك ، واقبل هذا الرجاء بطلب العفو وكأنك السيد المسيح ، من خادمك المتواضع .

باسكوال دوارتى

سجن بطليوس ، فى ١٥ فبراير عام ١٩٣٧

فقرة من الوصية المكتوبة بخط اليد المقدمة من السيد خواكين باريرا لوبيث ، الذى قضى نحبه بدون ذرية وأوصى بتركته لراهبات الخدمة المنزلية .

البند الرابع : قد أمرت بخصوص لفة الورق الموجودة فى درج مكتبى ، المربوطة بخيط دوبارة ، وعليها عنوان بالقلم الأحمر يقول : باسكوال دوارتى ، أمرت أن يرمى بها فى النار دون أن تقرا ، وبدون أى تباطؤ ، لأنها متحللة ومنافية للعادات الطيبة ، ومع ذلك ، فإنه إذا تدخلت العناية الإلهية بدون أية وساطة من أحد فإن اللفة المذكورة تتخلص خلال ثمانية عشر شهرا من العقوبة التى أريدها لها ، وإنى أمر من يعثر عليها أن يخلصها من التلف ، وأن يأخذها وكأنها من ملكه الخاص ، ويتصرف فيها كما يريد إذا لم تكن إرادته تختلف مع إرادتى .

حرر فى ماردة ( بطليوس ) عند الاحتضار .

يوم ١١ مايو عام ١٩٣٧ .

## إهداء

إلى ذكرى النبيل الشهير السيد خيسوس جونتاليث دي  
لاريقا ، كونت توري ميخيا ، الذي عندما قضى مؤلف هذا  
المكتوب أطلق عليه اسم باسكوال الصغير وأخذ يبتسم .  
ب . د





أنا ياسيدى ، لست سيئاً ، بالرغم من أنه لا تنقصنى الأسباب  
لكى أكون كذلك ، فكلنا نحن البشر الفانين نأتى من أرومة واحدة  
عندما نولد ، ومع ذلك عندما نبدأ فى النمو يحلو للقدر أن يفرق  
بيننا وكأننا من الشمع ويوجه مصائرنا فى طرق متشعبة تؤدى  
إلى نهاية واحدة وهى الموت ، ثمّة أناس يطلب منهم أن يمشوا  
فى طريق الأزهار ، وأناس يؤمرون بالمضى فى طريق الحرشف  
والصبار ، فهؤلاء يتمتعون بالنظرة الهادئة ، وهم فى أريج  
سعادتهم يبتسمون ابتسامة البرىء ، وأولئك يغالبون شمس  
البطحاء الحارقة ويقطبون الجبين مثل الوحوش دفاعاً عن  
النفس ، فهناك فرق كبير بين تزيين الجسد بأحمر الخدود  
والروائح العطرية وبين عمل هذا بالوشم الذى لا يمكن إزالته  
بعد ذلك .

ولدت منذ سنوات طويلة - على الأقل خمسة وخمسين عاماً -  
فى قرية ضائعة بإقليم بطليوس ، وكانت القرية على بعد حوالى  
فرسخين من المندراليخو ، وتقع على طريق أملس طويل كأنه  
يوم بلا خبز ، أملس وطويل مثل أيام شخص محكوم عليه  
بالإعدام ، وهاتان الصفتان لا يمكن لك فى مثل حالتك أن  
تتخيلهما .

كانت قرية ساخنة تسطع شمسها ، غنية إلى حد ما بالزيتون  
والخنازير ( معذرة ) ، ومنازلها مطلاة بلون شديد البياض ،  
لدرجة أن نظرى مازال يؤلمنى عندما أتذكرها ، وبها ميدان كله من  
الحجارة ، به نافورة جميلة من ثلاث عيون فى وسطه ، ومنذ عدة  
سنوات عندما خرجت من القرية لم تكن المياه تتدفق من العيون ،

ومع ذلك كم كانت النافورة رائعة ! كم كانت رشيقة ! ، كانت تبدو لنا جميعا بطرفها الذى يشبه طفلا عاريا ، وحوضها المتموج الحواف وكأنها أصداف سمك ، وفى الميدان كان يقع مبنى البلدية ، وكان كبيرا ومربعا مثل صندوق التبغ ، وفى منتصفه برج ، وفى البرج ساعة ، بيضاء مثل ذبيحة ، متوقفة دائما عند التاسعة ، وكأن القرية غير محتاجة إلى خدماتها ، وإنما محتاجة لها كزينة ، وفى القرية ، كما هو الطبيعى ، كانت توجد بيوت جميلة وأخرى سيئة ، والأخيرة ، مثلما يحدث فى كل شيء ، هى الأكثر انتشارا ، وكان هناك بيت من دورين ، هو بيت السيد خيسوس ، الذى كان يتمتع النظر ببهوه الملىء بالقيشاني والأصص ، فقد كان السيد خيسوس دائما من محبذى النباتات ، وأنا أعتقد أنه أمر مولاته بحراسة الغرانيون ودوار الشمس والنخيل والأعشاب ، وكأنها أقوم على رعاية أطفال ، لأن العجوز كانت تتجول دائما وفى يدها إناء فتروى الأصص بكثير من الحنو لابد من أن سيقان النباتات كانت تشكرها عليه ، ذلك أن هذه النباتات كانت تمثل عندها قمة النضارة والأخضرار ، وكان منزل السيد خيسوس يقع أيضا فى الميدان ، ومن الأشياء الغريبة بالنسبة لرأس مال صاحب البيت الذى لم يكن يكف عن الصرف أنه كان يختلف عن البيوت الأخرى ، فضلا عما ذكرته من أشياء جميلة فيما سبق ، فى شيء كل البيوت الأخرى تكسبه فيه ، وهو الواجهة ، التى كانت تبدو بلون الحجارة الطبيعى ، وكانت عادية جدا ، ولم تكن مطلية بالجير مثل البيوت الفقيرة جدا ، ولا بد من أنه كان هناك أسباب لذلك ، وكانت على البوابة بعض أحجار شعارية ، ذات قيمة كبيرة ، كما يقولون ، تنتهى برءوس محاربين من الماضى ، بها أكياس ورياش ، يرنو بعضها الى منطقة جنوب شرق والأخرى تجاه الغرب ، وكأنما تتمثل وضعا لمراقبة مايمكن أن يأتيها من هذه الجهة أو تلك ، وخلف الميدان ، من جانب بيت السيد خيسوس كانت تقوم الكنيسة ببرجها الحجرى وجرسها الذى كان يدق بطريقة لا أقدر على وصفها ،

ولكنه يرد إلى الذاكرة ، وكأنه مازال يدق فى هذه الأركان ، وكان برج الأجراس على نفس ارتفاع برج الساعة ، وفى الصيف عندما تاتى أسراب البجع ، كانت تعرف على أى برج منهما وقفت الصيف الماضى ، والبجعة العرجاء ، التى تحملت حتى الآن فصلى شتاء كانت من عش الكنيسة ، ويبدو أنها سقطت مرة وهى مازالت غضة خوفا من طائر جارح .

وكان بيتى يقع خارج القرية ، على بعد حوالى مائتى خطوة طويلة من بيوت منطقة الأناس ، كان بيتا ضيقا من طابق واحد ، يتفق مع وضعى ، ولكن حدثت ألفة بينى وبينه ، بل إنى فى بعض الأوقات كنت أحس بالفخر من جراء وجودى فيه . والواقع أن الشئ الوحيد الذى كان يمكن أن يُرى فى البيت هو المطبخ ، وهو أول ما يقابل الداخل ، كان نظيفا دائما ومدعوكا بعناية ، صحيح أن الأرضية كانت ترابية لكنها كانت واطئة تحدث رسومات بحصواتها الصغيرة ، ولا تكاد تقل عن أرضيات أخرى كثيرة وضع لها صاحبها بلاطا حتى يشعر أنه أكثر حداثة ، كان المكان نظيفا ومشرقا ، وحول الجرس كنا نضع رفا عليه خرف للزينة ، وجرار تذكارية مرسومة باللون الأزرق ، وأوانى بها رسوم زرقاء أو برتقالية ، وبعض الأوانى عليها رسوم ، وبعضها الآخر يحمل وردة أو اسما أو سمكة ، وعلى الجدران كانت لدينا عدة أشياء ، من بينها تقويم جميل جدا عليه صورة فتاة تجلب لنفسها الهواء بمروحة فوق زورق ، وتحتها نقرأ حروفا تبدو مثل تراب من الفضة تقول « موديستو رودريجيث وارد من وراء البحار . ماردة ( بطليوس ) » ، وصورة لعامل نسيج ببدلته الملونة التى تشع ضوءا ، وثلاث أو أربع صور فوتوغرافية - منها الكبير والمتوسط - لا أدرى لمن لأنى رأيته دائما فى نفس المكان ، ولم يعن لى أبدا أن أسأل عن ذلك ، وكان لدينا أيضا ساعة / منبه مثبتة على الحائط ، لا تساوى شيئا ، وإن كانت تعمل دائما بصورة منتظمة ، وعلبة دبابيس



ملونة ، مثبتت بها عدد من الدبابيس الجميلة ذات الرءوس التي تشبه الزجاج الملون ، أما أثاث المطبخ فقد كان قليلا وبسيطا : ثلاثة كراس ، أحدها دقيق جدا ، له مسند وأرجل من الخشب المقوس ، وظهره من الخشب المشبك ، وطاولة من الصنوبر ، بها درج يناسبها ، وكانت تبدو أقصر قليلا من المقاعد لكن لا بد منها . أما جو المطبخ فكان جيدا : إذ كان مريحا ، وفي الصيف ، بما أننا لم نكن نشعل فيه النار فقد كان الإنسان يحس بالانتعاش وهو يجلس على أرضية المكان ، حيث كنا ساعة الغروب نفتح الأبواب اثنين اثنين ، أما في الشتاء فكان دافئا بفعل جذوات النار المشتعلة التي كنا عندما نعتنى بها قليلا نظل متقدة طوال الليل . وكم كان ممتعا أن نرى ظلالنا على الحائط عندما يشتعل اللهب ! كانت الظلال تذهب وتجيء . أحيانا ببطيء ، وأى أحيانا أخرى على قفزات كأننا نلعب ، وأنا أذكر أنى وأنا ه غير كنت أشعر بالخوف ، وحتى بعد أن كبرت أصاب بقشعريرة عندما أتذكر لحظات الخوف هذه .

أما باقى المنزل فإنه لا يستحق عناء وصفه ، وهذا هو جانبه المبتذل ، فقد كان لدينا حجرتان أخريان ، إذا صح لنا أن نسميهما حجرتين لأنهما كانتا مسكونتين ، لا لأى شيء آخر ، والأسطبل ، وأنا فى كتب الأحيان الآن أفكر ولا أدري لماذا كنا نسميه هكذا ، حيث كنا . ومهملا ، كما هو عليه ، وكنا ننام فى إحدى الحجرتين أ . جتى ، وفى الأخرى ينام أبواى إلى أن توفاهما الله ، وبعد ذلك ظلت الحجرة خالية دائما ، فى البداية لأنه لم يكن هناك من يشغلها ، وبعد ذلك عندما وجد هذا الفرد فإنه قد فضل المطبخ دائما ، لأن المطبخ بالإضافة إلى كثرة أضوائه لم يكن هواؤه شديداً . أما أختى فقد كانت تنام فيها دائما عندما تحضر ، والأطفال عندما أعقبت كانوا أيضا يدلفون إلى هناك كلما انطلقوا من إسمار الأم ، والحق أن الحجرات لم تكن نظيفة جدا ولا مشيدة جيدا ، ولكن الحق أيضا أنها لم تكن

تستوجب الشكوى ، كان يمكن أن نعيش ، وهذا هو الأساس .  
بضمان سحب عيد الميلاد ، وفي مأمن من اختناقات أعياد  
العذراء في أغسطس .. وكان الاسطبل هو أسوأ شيء ، كئيبا  
ومعتما ، أما جدرانها فكانت مضمخة برائحة حيوان ميت انتزع  
من حفرة عندما بدأت الحيوانات في شهر مايو تقريبا تربي  
الجيف التي سوف تصبح طعاما للغربان .

شيء غريب ، ولكن إذا كنت قد تخلصت من تلك الرائحة وأنا  
فتى ، فإن الكروب التي كانت تغشاني بدت مثل الموت ، ومازلت  
أذكر تلك الرحلة التي قمت بها إلى العاصمة متخذا طريق  
المزارع ، فقد ظللت أمشي طوال اليوم في حالة من الكرب أضرب  
في الهواء وكأني كلب صيد . وعندما ذهبت لأنام في الخان ( فندق  
صغير - المترجم ) فاحت رائحة بنطلوني الخشن .. كان الدم يغلي في  
عروقي . نحيت المخدة جانبا ، وأسندت رأسي على بنطلوني  
مطويا لكي أنام . ونمت في تلك الليلة مثل صخرة .

وفي الاسطبل كان لدينا دابة هزيلة مصفاة من اللحم تساعدنا  
في الشغل ، وعندما كنا نحس بأن أوضاعنا قد تحسنت ، وهو  
شيء في الحقيقة لم يكن يحدث إلا لماما ، كنا نمتلك أيضا زوجا  
من الجنزير ( معذرة ) أو ثلاثة ، وفي الجزء الخلفي من البيت  
كان لدينا حوش أو قل نتوءا ، ليس كبيرا ، لكنه كان يؤدي لنا  
خدمات ، وبه جب اضطررت بمرور الزمن أن أردمه لأن مياهه  
كانت أسنة .

وخلف الحوش كانت هناك قناة ، أحيانا نراها نصف جافة  
لكنها لم تكن تمتلئ أبدا ، قدرة ، كريهة الرائحة مثل جماعة من  
الفجر ، وكان يمكن أن تستخرج منها بعض الاسماك الجميلة ،  
ولهذا فإنني في بعض الامسيات كنت لكي أقتل وقتي أتسلى  
بذلك ، أما زوجتي التي كانت وسط كل هذا ذات دعاية ، فكانت  
تقول إن الاسماك سميئة لأنها تأكل من نفس ما يأكل منه السيد

خيسوس ، مع فارق وحيد هو أن دورها يأتي في اليوم التالي .  
وعندما كنت أذهب للصيد كانت الساعات تمضي دون أن أحس  
بها ، وعندما يحين موعد لمّ الأدوات يكون المساء . في الغالب ،  
قد بسط رداءه على المكان وهناك ، من بعيد ، كانت مدينة  
المندراليخو مثل عطاءة واطئة سميئة ، أو مثل حبة ملفوفة  
تخشى أن تنفصل عن الأرض ، قد بدأت تضيء أنوارها  
الكهربائية . ومن المؤكد أن سكانها كانوا يجهلون أي كنت  
أصطاد ، وأنى كنت في تلك اللحظة نفسها أتأمل كيف كانوا  
يضيئون أنوار بيوتهم متخيلا أيضا أن كثيرين مذهب كانوا  
يقولون أشياء تخطر على بالي أو يتحدثون في أمور لا تغيب عن  
ذهني ، ها إن سكان المدن يعيشون وقد أداروا ظهورهم  
للحقيقة ، وفي غالب الأحيان لا ينتبهون إلى أن هناك على بعد  
فرسخين ، في وسط السهل ، رجلا من الريف يتسلى بالتفكير فيهم  
وهو يطوى سنارة الصيد ، بينما يتناول من على الأرض ، سلة  
الصفصاف وبها ست سمكات أو سبع !

ومع ذلك فإن صيد الاسماك كان يبدو لي دائما مضبغة للوقت  
لاتليق بالرجال ، ومن ثم فإنني في معظم الأحيان كنت أخصص  
أوقات فراغي للصيد البري ، وفي القرية اشتهرت بين الناس بأن  
لدي بعض المهارة في ذلك ، ومع التواضع ينبغي على أن أقول  
بصراحة إن الذي أطلق على هذه الشهرة لم يجانبه الصواب كان  
لدي كلبة صيد صغيرة اسمها « شيبا » CHiSPA فيها بعض  
الدناءة ، وفيها بعض الخشونة ، لكني كنت أتفاهم معها جيدا ،  
وكنت أصحبها في كثير من الأيام صباحا الى منطقة « شارك »  
على بعد فرسخ ونصف من القرية تجاه خط البرتغال ، ولم يحدث  
أن عدنا ذات مرة خالي الوفاض الى البيت وعند العودة كانت



الكلبة تسبقنى وتنتظرنى دائما عند التقاطع كانت هناك صخرة مدورة ومسواة وكأنها مقعد واطيء ومازلت أحتفظ لها بذكرى طيبة أكثر من أى شخص ، وأفضل ، بالتأكيد مما أحتفظ به لكثير منهم .. كانت عريضة وغائرة بعض الشيء وعندما كنت أجلس عليها كان عجزى ينزلق قليلا ( معذرة ) وأحس براحة شديدة لدرجة أنى كنت أشعر بالأسى ، وأنا أضطر لتركها ، كنت أمضى لحظات طويلة جالسا على الصخرة عند التقاطع ، أصفر ، والبندقية بين ساقى ، أرنو إلى مايمكن أن أرنو إليه ، وأدخن سيجارة ، وكانت الكلبة تجلس قبالتى ، على رجليها الخلفيتين ، وتنظر إلى ورأسها مائلة ، وأذناها البنيتان فى حالة تيقظ شديدة ، كنت أحدثها ، وهى ، وكأنها تريد أن تفهمنى أفضل ، ترفع أذنيها قليلا ، وعندما أصمت كانت تنتهز الفرصة لتجرى خلف الجراد ، او ببساطة لكى تغير وضعها . وعندما كنت أمشى ، ودائما دون أن أدرى لماذا ، كان لابد أن أدير رأسى تجاه الصخرة ، وكأنى أستودعها ، وحدث ذات يوم أن بدت لى شديدة الحزن لمغادرتى إياها ، لدرجة أنى لم ألبث أن عدت أدراجى أجلس عليها من جديد . وعادت الكلبة تقعى قبالتى ، وتنظر إلى مرة أخرى ، والآن ، أدرك أن نظرتها كانت مثل نظرة المعترفين ، فاحصة وباردة ، تشبه ، كما يقال ، نظرة الوشق ( حيوان يشبه القط - المترجم ) وسرت فى جسدى قشعريرة . كانت تبدو مثل تيار يحاول أن يخرج من بين ذراعى ، وانطفأت منى السيجارة .. والبندقية ذات الماسورة الواحدة ، توقفت عن المداعبة ، ببطء ، بين ساقى . وظلت الكلبة تنظر إلى ثابتة ، وكأنها لم ترنى أبدا من قبل ، وكأنها تريد أن تتهمنى بشيء بين لحظة وأخرى ، وكانت نظرتها تجعل دمى يغلى فى عروقى لدرجة أن جاءت لحظة بدا فيها وكأنى لابد وأن أسلم نفسى ، كان الجو حارا ، حرارة

مرعبة . ووجدت عيني تغمضان بتأثير نظرة الحيوان التي تشبه  
المسمار .

تناولت البندقية وأطلقت رصاصة ، عدت أملأها وعدت أطلق  
كان دم الكلبة غامقا ولزجا ، وأخذ ينتشر قليلا قليلا على الأرض

لا أحتفظ من طفولتي بذكريات طيبة . كان أبى يسمى استيبان دوارتي دينيز ، برتغاليا . ناهز الأربعين و أنا طفل ، طويل وبدين مثل جبل ، كان لونه يميل للحمرة ، وله شارب كبير أسود يمتد إلى أسفل ، وطبقا لما يحكون ، فإنه فى فترة الشباب كان يمضى صاعدا لأعلى ، ولكنه منذ أن دخل السجن ، ذهب بهاؤه وأنهكت قوة شاربته ، حتى اضطر فى النهاية أن يدفنه ، كنت أشعر تجاهه بكثير من الاحترام وعبر قليل من الخوف ، وكنت دائما كلما استطعت استدعى طيفه . وأحاول ألا أصطدم به كان فظا غليظا لايسمح بأى يعارضه أحد فى شىء وهى عادة كنت أحترمها لأنها كانت تشدنى . وعندما كان يمتلكه الغضب ، وهو شىء كان يحدث له بأكثر مما يحتاج . كان يضرب أمى ويضربنى « علقات » ساخنة مهما كان السبب تافها ، وهى « علق » كانت أمى تحاول أن تردها له حتى تنتصر لنفسها قليلا ، ولكنى إزاء ذلك لم أكن أملك إلا الاستسلام لأنى كنت صغيرا . ها إن الاجسام شديدة الرخاوة فى هذه السن الغضة !

ولم أجرؤ أبدا لامعه ولامع أمى أن أسأل متى سجن ، لأنى فكرت أن الحذر يستوجب ألا أضع الكلاب فى ساحة الرقص ، فهى بنفسها ترقص أكثر مما ينبغى ، ذلك أنى فى الحقيقة لم أكن أحتاج أن أسأل عن شىء ، لأنه لم يحدث أبدا أن انعدمت الأرواح المحسنة ، وخاصة فى القرى قليلة السكان ، ومن ثم فقد تطوع بعض الناس لى يقصوا على كل شىء ، لقد قبضوا عليه بتهمة التهريب ويبدو أن هذه كانت مهنته طوال سنوات كثيرة ،



ولكن بما أن الابريق الذى يحمل إلى النبع كثيرا ينتهى به الأمر بأن يكسر ، وبما أنه لا توجد مهنة بدون متاعب ، ولا طريق بدون عمل ، فقد حدث ذات يوم ، ولعله أقل يوم توقع فيه ذلك والثقة توقع الشجعان مواقع التهلكة - أن تبعه رجال البوليس ، وعثروا معه على البضاعة المهربة ، واقتادوه للحجز ، ولا بد أن هذه الواقعة قد مر عليها وقت طويل ، لأنى لا أتذكر شيئاً ، وربما لم أكن ولدت .

أما أمى ، فعلى العكس من أبى ، لم تكن بدينة ، بالرغم من قامتها الفارعة ، كانت طويلة وممصوصة ، ولم يكن مظهرها ينم عن صحة طيبة ، وإنما على العكس ، كانت سحنتها صفراء ضاربة إلى الخضرة ، وخداها غائرين ، ومظهرها كله يدل على أنها إما مسلوقة وإما ليست بعيدة عن ذلك ، كانت أيضا جافة وعنيفة ، ولها مزاج يمضى فى طريق كل الشياطين ولغة تنطلق من فمها لايحاسبها عليها إلا الله ، لأنها كانت تسب أسوأ الأشياء فى كل لحظة ولأتفه الأسباب .

كانت ترتدى ملابس الحداد دائما ، وكانت صداقتها للمياه قليلة ، قليلة جدا لدرجة أنى لو ذكرت الحقيقة فسوف أقول إنها على امتداد حياتها ، حسبما أعلم ، لم أرها تغتسل إلا فى مرة واحدة قال لها فيها أبى ياسكرانة ، وأرادت أن تظهر له أنها لاتخاف من المياه . وعلى العكس من ذلك فإن النبيذ لم يكن يسيئها كثيرا ، فكلما وقع فى يدها بعض النقود ، أو فتشت فى صدىرى الزوج ، كانت ترسلنى إلى الحانة بزجاجة تخفيها تحت السرير حتى لايعثر عليها والدى . كان لها شارب صغير أبيض على جانبى الشفتين ، وخصلات شعر جعدة خشنة تضمها فى ضفيرة ، متوسطة الحجم ، فوق الرأس ، وحول الفم كان يلاحظ وجود جروح أو شارات صغيرة وردية متناثرة ، وطبقا لما أعتقد فإن هذه الجروح تخلفت عن بعض البثور الخبيثة التى ظهرت

عندها وهى شابة ، وفى بعض الأحيان ، فى الصيف ، كانت تدب الحياة فى هذه الجروح ، ويزهو لونها وينتهى بها الحال إلى أن تكون دما مل متقيحة ، يعمل الخريف على قتلها ، بينما الشتاء يمسحها تماما .

كانت العلاقة بين أبوى سيئة ، فبالإضافة إلى قلة حظهما من التعليم كان حظهما من الفضائل قليلا أيضا ، كما كانا غير راضيين بما قسم الله به لهما - وهى كلها نقائص ورثتها لسوء حظى رغم أنفى - وهذا جعلهما لا يعبان بالتفكير فى المبادئ أو وضع حد للغرائز الدنيا ، مما أفسح المجال لأن يكون أى سبب ، مهما صغر شأنه ، كافيا لاثارة العاصفة التى كانت تمتد بعد ذلك أياما وأياما دون أن يرى لها نهاية ، وأنا بشكل عام ، لم أكن أنحاز لأى منهما ، لأنى لو قلت الحقيقة كان بالنسبة لى سيان أن يكسب هذا أو تلك ، فأحيانا كنت ، أسعد بأن يضرب أبى ، وأحيانا أخرى بأن تضرب أمى . ولكنى لم أجعل من هذا أبدا مسألة هامة .

وأمى لم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة ، أما أبى فنعم ، وكان فخورا بذلك إلى أقصى حد ، حتى لقد كان هذا يظهر على وجهه ، باستمرار ، وعادة ما كان يقول لها ، بشكل تلقائى ، يا جاهلة ، وهى مسبة خطيرة عند أمى التى كانت تصير مثل الأفعوان ، وفى بعض الامسيات كان أبى يأتى إلى البيت بورق فى يده ، ويجلسنا رغما عنا فى المطبخ ويقرأ علينا الأخبار ، وتأتى التعليقات بعد ذلك ، وفى تلك اللحظة كنت أحس بالعرشة لأن هذه التعليقات كانت دائما بداية لمشاجرة .

وكانت أمى ، لكى تهينه ، تقول له إن الورق ليس فيه شىء مما يقرأه وأن كل مايقوله يستخرجه من رأسه ، وهو عندما يسمع هذا الرأى منها يخرج عن طوره ، ويصيح وكأنه ، مجنون ، ويصفها بأنها جاهلة وساحرة ، وينتهى به الأمر دائما بأن يقول لها

بصوت عال أنه لو عرف كيف يقول أشياء الورق هذه في اللحظة المناسبة فهل كان يمكن أن يتزوجها . وكانت هي الأخرى مسلحة ، فتصفه بأنه بائس وغزير الشعر ، وتتهمه بالجوع وأنه برتغالي ، وهو بما أنه كان ينتظر سماع هذه الكلمة حتى يضربها ، فإنه يشد الحزام ويجرى خلفها في المطبخ حتى يتعب . وأنا ، في البداية كنت أحظى بضربة أو ضربتين . ولكني عندما ازددت خبرة أدركت أن الطريقة الوحيدة لعدم البلل هي ، ألا أعرض نفسي للمطر ، وهذا ماكنت أفعله ، عندما أرى الأمور .. تتخذ هذا المظهر السيئ ، كنت أتركهما وحدهما وأمضي « روحوا في داهية » .

والحق أن الحياة في أسرتي لم يكن فيها من السرور إلا القليل ، ولكن بما أنه ليس في استطاعتنا أن نخنار . وإنما نحن موجهون ، حتى قبل أن نولد . فبعضنا يذهب في جانب والآخرين يذهبون في جانب آخر . فقد كنت أحاول أن ارضى بنصيبى ، وكانت هي الطريقة الوحيدة للحيلولة دون اليأس ومنذ الصغر ، وهي الفترة التي يمكن فيها السيطرة على إرادة الناس ، أرسلوني فترة قصيرة إلى المدرسة . وكان أبى يقول إن الصراع من أجل الحياة شيء شديد القسوة ، وأنه ينبغي على الإنسان أن يعد نفسه كي يواجهها بالأسلحة الوحيدة التي يمكن أن نقهرها بها وهي أسلحة الذكاء . كان يقول لى كل هذا دفعة واحدة وكأنه شيء معلوم ، وكان صوته فى تلك اللحظات يبدو لى أكثر حنكة ويشتمل على نبرات لاثثير الشك فى نفسى . وبعد ذلك وكأنه نادم ، كان يغرق فى الضحك ، وينتهى به الأمر بأن يقول لى بلهجة فيها دعاية :

- لاتهتم ، يافتى هاأنا أتقدم فى السن .

ثم يمضى برهة مفكرا ، ويكرر بصوت خفيض مرة وأخرى :

- هاأنا أتقدم فى السن .. ! هاأنا أتقدم فى السن !



وقد استمر تعليمي في المدرسة لفترة قصيرة ، وبما أن أبي كان له طابع عنيف ومتسلط في بعض الأشياء فإنه كان ضعيفا وصغير النفس في أشياء أخرى وبشكل عام ، قد لاحظت أن الطابع الأول كان يمارسه فقط في الموضوعات الصغيرة التافهة ، لأنه في الموضوعات ذات الأهمية قليلا ما كان يؤكد عليها ، لا أدري هل بسبب الخوف أم لماذا . وأمي لم تكن تريد أن أذهب إلى المدرسة ، وكلما جئنا لها الفرصة : بل حتى دون أن تحين ، عادة ما كانت تقول لي طالما لم تخرج من حياة الفقر فليس من المجدي أن تتعلم شيئا . وقد حرثت في أرض متهده ، لأنني أيضا لم أكن مشدودا لحضور الدروس ، ونحن الاثنين ، وبمرور الوقت ، انتهى بنا الأمر باقناع أبي فوافق على أن أترك الدراسة . وهكذا كنت أعرف القراءة والكتابة والجمع والطرح ، وبالفعل كانت لدى بعض المهارف التي تدفعني . وعندما تركت المدرسة كان عمري اثني عشر عاما ، ولكن لماذا نستعجل ، فكل الأشياء تريد أن تأتي في دورها وعلى رأي المثل « مهما صحوت مبكرا فإن الصبح لن يطلع إلا في موعده » .

كنت ما أزال في ميعة الصبا عندما ولدت أختي روساريو . ولا أحتفظ من ذلك الزمن إلا بذكرى مضطربة ومبهمة ، ولا أدري إلى أي مدى سوف أحكي بصدق ما حدث ، سوف أحاول ، ومع ذلك أضع في اعتباري أنه إذا كانت حكايتي يمكن أن توصف بعدم الدقة ، فإنها ستكون دائما أقرب إلى الواقع من التخيلات ، التي يمكن أن تسبكها مستقيا إياها من الخيال ومن مهارة الفنان . وأذكر أن الجو كان حارا في المساء الذي ولدت فيه روساريو ، ولعلنا كنا في يوليو أو أغسطس . كانت الحقول هادئة ذابلة ، والطيور بمناقيرها تبدو وكأنها تريد أن تلحق عظام الأرض ، والناس والحيوانات مأخوذين ، والشمس هناك في الأعلى ، مثل سيد مسيطر ، تضيء كل شيء ، وتحرق كل شيء .. وكانت ولادة

أمى دائما صعبة جدا ومؤلمة ، فقد كانت نصف عاقر ، وجافة بعض الشيء ، والألم أكبر من طاقتها ، وبما أن المسكينة لم تكن أبدا نموذجا للفضائل ولا للمكرمات وبما أنها لم تكن تعرف كيف تعاني وتصمت ، مثلى ، فإنها كانت تحل كل شيء بالصياح ، وقد ظلت تصيح عدة ساعات عندما ولدت روساريو . لأن الولادة ، لاستكمال دائرة سوء الحظ ، كانت عسيرة ، وعلى رأى المثل : امرأة عسيرة الولادة ولها شارب .. ( تكملة المثل لا أكتبها نظرا لأن هذه السطور موجهة إلى شخص ذى مقام رفيع ) .. وقد ساعدت أمى فى الوضع امرأة من القرية ، هى السيدة انجراثيا ، سيدة الربوة ، وهى متخصصة فى النذب والولادة ، نصف ساحرة وشديدة الغموض ، وكانت تحمل معها « خلطة » تضعها على بطن أمى كي تخفف ألمها ، ولكن بما أن هذه ، سواء بدهان أو بغيره ، ظلت تصيح حتى أنهكت قواها ، فإن السيدة انجراثيا لم تجد بدا من أن تتهمها بأنها زندية ومسيحية سيئة ، وبما أن صيحات أمى فى تلك اللحظة كانت تنطلق مثل ريح شديدة ، فإنى صرت أفكر ألا يمكن أن تكون ممسوسة ولكن شكى لم يستمر طويلا فسرعان ماتبين أن سبب هذه الأصوات الشنيعة هى أختى الجديدة .

وقد ظل أبى مدة طويلة يتمشى بخطوات واسعة فى المطبخ . وعندما ولدت روساريو انطلق نحو سرير أمى ، وبدون أى اعتبار للظرف الذى تمر به بدأ يصفها بأنها خبيثة ومحتالة ويهمزها بشراك فى يده لدرجة أنى كنت مندهشا كيف لم يطحنها حية . وبعد ذلك مشى ولم يعد إلا بعد يومين كاملين ، وعندما عاد كان سكرانا مثل قرية نبيذ ، اقترب من سرير أمى ثم قبلها ، وقد تركته أمى يقبلها . وبعد ذلك ذهب لينام فى الاسطبل .

أما روساريو فقد نصبوا لها هيكلا ( مهدا ) من صندوق عميق نوعا ما ، ووضعوا في أرضيته مخدة كاملة من وبر الماعز ، وهناك وضعوها بجانب سرير أمي . ملفوفة في نطاق من القطن وأحكموا لفها حتى أنني كنت كثيرا ما أفكر أنهم سوف يخذقونها . ولا أدري لماذا حتى ذلك الحين ، كان يحدث لي أن أتخيل الأطفال الصغار - مثل اللبن ، ولكن الذي أتذكره فعلا هو الانطباع السيء الذي أعطته لي أختي الصغيرة عندما رأيتها لزجة وملونة مثل ديدان الكنغر المشوى ، وكانت برأسها خصلة شعر خفيفة مثل شعر الزرزور أو شعر فراخ الطير في أعشاشها ، فقدتها بمرور الشهور ، ويداها الصغيرتان المشدودتان الناصعتان اللتان كانت رؤيتهما تصيب المرء بقشعريرة ، وعندما فكوا لها اللغّة بعد ثلاثة أيام أو أربعة من ولادتها كي ينظفوها قليلا ، استطعت أن أثبت جيدا كيف كانت ، ويمكن أن أقول إنها لم تصبني بالقرف مثل المرة الأولى : فلونها كان قد أصبح رائقا ، والعينان - اللتان لم تفتحهما بعد - كانتا تبدوان وكأنها تريد تحريك الجفون واليدان كانتا تعطيانني انطباعا بأنهما قد صارتا رخوتين ، وقد نظفتها جيدا السيدة إنجراثيا بمياه الزامور ، وهل هناك إلا ذلك ، لكنها كانت شفاء البائسين ، نعم ثم لفتها من جديد في النطاق الذي اقتطعوا منه بعض الأجزاء ، ورمت جانبا بعض القطع الأخرى التي اتسخت ، لغسلها ، وتركت الطفلة راضية جدا ، حتى لقد ظلت نائمة ساعات متواصلة ، ونظرا للصمت



المطبق فى المنزل لم يشعر أحد أنه كانت لدينا حالة ولادة ، كان أبى يجلس على الأرض فى مواجهة الصندوق ، وقد مرت عليه الساعات وهو ينظر إلى المولودة بوجه محب مثلما قالت السيدة انجراثيا ، حتى أنى جعلت أنسى تقريبا نظامه الحقيقى ، وبعد ذلك نهض ، وذهب ليقوم بجولة فى القرية ، وعندما لم يخطر على بالنا ، وفى الساعة التى لم نتعود أن نراه أتيا فيها ، وجدناه مرة أخرى بجوار الصندوق بوجه رقيق ، ونظرة متواضعة جدا لدرجة أن من يراه فى تلك اللحظة ، ولا يعرفه ، قد يعتقد أنه أمام القديس روكى نفسه

وقد كبرت روساريو دائما ضعيفة ونحيفة - فما أقل الزاد الذى كان يمكن أن تحصل عليه من ثدى أمى الفارغين ! وكانت أيامها الأولى فى غاية الصعوبة لدرجة أنها فى أكثر من مرة كانت على وشك أن تمضى . وكان أبى يشعر بالقلق عندما يرى البنت لا تتقدم ، وبما أنه كان يحل كل شيء بالقاء كمية أكبر من النبيذ فى حلقومه ، فقد عشت ، أنا وأمى ، فترة فى غاية السوء لدرجة أننا كذا ننحسر على الأيام السالفة ، التى كانت شديدة القسوة بالنسبة لنا لاننا لم نكن قد عرفنا أسوأ منها . إنها اسرار طبيعة البشر الذين ينفرون كثيرا مما لديهم حتى يأتى وقت يتحسرون فيه على مافات ! .. أما أمى التى كانت قد تدهورت صحتها أكثر مما قبل الوضع ، فقد صارت تضربنا « علقات » ساخنة ، وبالنسبة لى لم يكن من السهل عليها أن تمسك بى ، ومن ثم كانت تضربنى بطرف الحذاء فى غيظ عندما تصطدم بى ، حتى لقد فر الدم ذات مرة من عجزى ( معذرة ) أو تترك علامات فى ضلوعى وكأنها مستها بحديد ساخن .

ورويدا رويدا أخذت الطفلة تشفى وتستعيد قواها بفضل أنواع شوربة من النبيذ القانى وصفها بعض الناس لامى ، وبما أنها كانت ذات طبيعة متيقظة ، والوقت لايمضى سدى ، فإنها إذا

كانت قد تأخرت شيئاً ما عن المعتاد في تعلم المشى فإنها بدأت تتكلم في سن مبكرة جداً بكثير من السهولة وكثير من التماسك ، حتى أننا جميعاً كنا مذهولين من ملاحظتها .

وقد مر هذا الوقت الذي يكون فيه الأطفال جميعاً سواء . وكبرت روساريو ، حتى أصبحت صبية تقريباً ، وعندما كنا نتأمل فيها كنا نلاحظ أنها أكثر انتباهاً من عطاءه ، وبما أنه لم يحدث أبداً في عائلتي أن فكر أحد في أن يستخدم دماغه في الأشياء الموجودة أمامنا فقد أصبحت الطفلة بسرعة هي ملكة البيت ، وجعلتنا جميعاً نمشي مستقيمين مثل القضبان . إذا كان الخير هو حاستها الطبيعية فإنها كانت تستطيع أن تعمل أشياء كبيرة ، ولكن إذا كان الله قد أراد ألا يتميز أحد منا بميول طيبة فقد وجه خطواتها نحو ضرورات أخرى ، وبسرعة أدركنا أنها وإن لم تكن بلهاء إلا أنه كان من الأفضل أن تكون كذلك ، فقد كانت تصلح لكل شيء فيما عدا الشيء الطيب : فكانت تسرق بخفة ورشاقة مثل غجرية عجوز ، وتعودت على الشرب منذ الصبا ، واشتغلت قوادة لمغازلات العجوز ، وبما أنه لا أحد اهتم بأن يقومها - ويضع قدميها على طريق الخير - فقد مضت من سييء إلى أسوأ ، حتى جاء يوم ، والصبية عمرها أربعة عشر عاماً جرفت فيه كل ما كان قد بقي في كوخنا من قيمة قليلة ، فتوجهت إلى مدينة تروخيللو ، إلى بيت القيرا .

ويمكن أن تتصور الأثر الذي أحدثته مشيها في بيتنا ، ذلك أن أبي كان ينحى باللائحة على أمي ، وأمي تنحى باللائحة على أبي ..

وأكثر شيء افتقدنا فيه روساريو كان في موضوع فضائح أبي ، لأنها عندما كانت موجودة كان يحاول أن يثيرها في حالة وجودها خارج البيت ، أما الآن وبعد أن تركت البيت تماماً فإن كل الأوقات أصبحت مرتعاً له لإشعال النيران . ومن العجيب أن

نفكر أن أبى - الذى لم يكن يستميله أحد لتوحشه و « نشافة » دماغه - كانت هى الانسانة الوحيدة التى يستمع اليها ، فقد كانت تكفى نظرة من روساريو لكى تهدىء من ثورة غضبه، وفى أكثر من مرة أدخرت ضربات « محترمة » لمجرد أنها كانت حاضرة . من الذى كان يظن أن ذلك الانسان الفظ يمكن أن تسيطر عليه مخلوقة بضة كهذه !

وقد ظلت فى تروخيللو خمسة شهور تقريبا ، ثم عادت إلينا بسبب إصابتها بالحمى ، نصف مية ، وبقيت طريحة الفراش مايقرب من عام ، لأن نوبات الحمى التى كانت وبيلة ، جعلتها قريبة جدا من عالم الموتى ، ونظرا لمهنة والدى - الذى كان سكيلا وعرييدا ، هذا صحيح ، لكنه كان مسيحيا قديما بل كان مستقيما جدا - وصل الأمر إلى إقامة القداس عليها وإعدادها تمهيدا لتشيعها الى الرحلة الأخيرة . ولكن المرض ، مثل كل شىء ، له نوباته ففى بعض الأيام التى كانت تبدو فيها قد انتعشت كانت تعقبها ليال نحس فيها أنها باقية ، وكان مزاج والدى مثل الكابة ، ومن ذلك الزمن الحزين لا أحتفظ بذكرى هناة عدا واحدة هى أنها من الاشهر التى مرت دون أن تحدث فيها لكمات بين تلك الجدران ، لقد كان العجوزان فى حالة ضيق . وكانت الجارات تغشين حجرتها كى توصيها باستخدام أعشاب معينة ، ولكننا كنا نثق أكثر فيما تقدمه لنا السيدة انجراثيا ولهذا كنا نهرع اليها نستمع الى نصائحها ، لأننا كنا نلمس منها بعض الشفاء .. وكان العلاج الذى أمرت به ، يعلم الله ، معقدا ، ولكن بما أنها أعدته بكل مألديها من حواس فقد وجب علينا أن نجربه ، لأنه بالرغم من بطء الشفاء فقد كان يرى عليها بعض التحسن .. وكما يقول المثل فإن العشب السيئ لايموت أبدا ، ولايعنى هذا أنى أريد بذلك أن أقول أن روساريو كانت سيئه ( وإن لم أستطع أيضا أن أقول إنها كانت طيبة )



فالحق أنها بعد أن تناولت الوصفة التي أمرت بها السيدة انجراثيا لم يعد إلا أن تنتظر مرور الوقت حتى تستعيد صحتها .  
ومعها بهاءها ورونقها .

ولم يكن شفاؤها خيرا ، فعندما عادت الفرحة مرة أخرى إلى بيت أبوي ، وكان الشيء الوحيد الذي اتفقا عليه هو انشغالهما بالبيت ، عادت الثعلبة تفعل مثل القرصان ، تملأ الكيس بمدخرات المسكين ، ومثلما يحدث على الطريقة الفرنسية ، عادت لترفع برقع الحياء ، وتمشي ، هذه المرة متوجهة إلى المندراليخو ، حيث توقفت في بيت نيفيس المدريرية ، هذا صحيح ، أو هذا ما أذكره وإن كان أكثر الناس سفالة يظل له دائما بعض خيوط من الخير ، ذلك لأن روساريو لم تنسنا نسيانا كاملا ، وفي بعض الأحيان - في اعياد ميلادنا أو في رأس السنة - كانت ترسل إلينا بصديري ، بالرغم من أنه كان يأتي « محرقا » وناخذه على أنه يصلح حزاما لبطن ممثلة ، إلا أن قيمته كانت تنبع من أنه كان يدلنا على أنها بالرغم مما تتطلبه مهنتها من لبس مبهر فإنها لاتسبح في رغد من العيش . وقد تعرفت في المندراليخو على الرجل الذي رتب لها الانهيار ، لا أقصد انهيار الشرف ، لأنها كانت قد سقطت تماما في ذلك الحين ، وإنما أعني انهيار الجيب ، ذلك أنها بمجرد أن فقدت الأولى ( الشرف ) كان الشيء الوحيد الذي ينبغي أن تنظر إليه هو الثانية . وكان هذا الرجل يسمى باكو لوبيث وله اسم آخر سييء هو « أبو شداد » وبالرغم من أنفي أنني لابد أن أعترف أنه كان فتى جميلا ، وإن لم تكن نظرته فيها كثير من الصرامة ، لأن إحدى عينيه كانت من الزجاج في المكان الذي يعلم الله في أي موقف فقد عينه الجسدية ، ومن ثم فإن نظرته كان بها بعض الحول الذي لا يدرك بسهولة ، كان طويلا ، نصف أشقر ورشيقا ، ويمشي في استقامة شديدة حتى أن الذي أطلق عليه للمرة الأولى اسم ابوشداد لم يخطيء

بالتأكيد ، ولم يكن لديه من وظيفة إلا وجهه . لأن النساء كانت تصرف عليه ، ولذلك فضل ألا يعمل وهو شيء إذا كان يبدو لي سيئاً . فلا أدرى هل ذلك لأنى لم تتح لى الفرصة أبدا لى أفعّل ذلك . وطبقا لما يروى فإنه فى بعض الأوقات كان يقوم بمصارعة العجول فى الميادين الاندلسية ، وأنا لا أدرى هل أصدق ذلك لأنه لم يكن يبدو لى رجلا ذا قيمة إلا مع النساء فقط ، ولكن بما أن هؤلاء النسوة ، ومنهن أختى ، كن يثقن فيه ثقة عمياء فقد كان يعيش حياة طيبة لأنك تعرف كيف تغالى النساء فى تقييم مصارعى الثيران . و ذات مرة ، كنت أمشى هائما ، أطوف خصيعة خوراليس - التابعة لسيّد خيسوس - فالتقيت به وكان اليا من المندرايخو بعد أن قطع خمسمائة خطوة ليقسم الميراث لى الجبل . كان يرتدى حلة جميلة بلون القهوة . وقد كان يمسك عصا فى يده . وقد نادانا التحية ، وهو بخبثه عادى رأى أن لا أسأله عن أختى أراد أن يستنطق لى لى ليرى كيف يخرج الجمل منى . لكنى كنت أقاوم ، ولابد أنه لاحظ كيف تبارز العرب فى نفسى . لأن الأمر لا يحتاج الى شيء . وأمر صابر من قبل فى غنى عن ذلك . وعندما وضع كل منا يده على يده الآخر لم يبق

قال لى

- وروساريو :

- أنت تعرف .

- أنا ؟

- نعم ، وإذا كنت لا تعرف فمن !

- ولماذا لابد أن أعرف ؟

كان يقول هذا الكلام بجد مثلما يقول أى انسان أنه لم يكذب فى حياته ، وكان يضايقنى أن أتحدث معه عن روساريو . وهكذا ترى سيادتك كيف تكون الأشياء .

واخذ الرجل يضرب بعصاه ضربات خفيفة على عشب الزعتر

- إذن نعم ، لماذا ينبغي أن تعرف ذلك ! حسنا !  
ألا تريد أن تعرف ؟

- اسمع يا أبوشداد ! اسمع يا أبوشداد ! أنا أصبحت فتيا  
ولا أقول كلاما فقط ، فلا تغونى ! لا تغونى !  
- ولتكن كيف يحب أن أغويك وأنت لاتدرى أين ؟ ولكن ماذا  
تريد أن تعرف من روساريو ؟ وما الصلة التى بينك وبين  
روساريو ؟ انها اخذك ، حسنا ، وماذا ؟ أيضا هى خطيبتى ، اذا  
بمدينتنا

وقد سمعنا بالكلية ولكن لو أن الأمر وصل بنا إلى التراسق  
بالتيه في القدم لم نصدقك بأمواتي انى كنت ساقطه قبل أن يلمس  
بدموعه صدى . والله رست أن ابرد لأنه كان يعرف شخصيتى ولأنه  
هو الشخص الذى رمل ورجل ليس من الرجولة أن تتشاجر ومعك  
بمقتله في بيتهم الاخر ليس معه شيء .

- اسمع يا أبوشداد ، من الافضل أن تكف عن الكلام !  
انهم خدمواك ، حسنا ، فلنكن كذلك ! وأنا ماذا ؟  
نأكل اموالنا ؟ نعم ، وبدا كأنه يريد أن يتعارك  
تدري ماذا أقول لك ؟

- فانه

- لو كنت أنت خطيب اختى لقتلتك .

ويحمد الله أن سكوتى فى ذلك اليوم كلفنى صحتى ، لكنى لم  
أكل أريد أن أضربه وقد استغربت من أن يحدثنى هكذا ، ففى  
القرية لم يجزأ أحد عى أن يقول لى نصف هذا الكلام .  
- وإذا قابلك مرة أخرى تطوف هكذا ، سوف أجعلك ضحية  
المؤلد فى الميدان .

- هذا كلام سوقى جدا !



- وخزات !

- اسمع ، يا أبوشداد ! .. اسمع ، يا أبوشداد !



في ذلك اليوم دخلت شوكة في أحد ضلوعي . وما زالت موجودة حتى الآن .

لماذا لم أنتزعها في تلك اللحظة هذا شيء لا أدرى به حتى الآن .. وبعد مرور الزمن ، وفي موسم آخر جاءت أختي اليينا ربما للنقاهاة من نزلة حمى أخرى . وقد حككت لي دماثة تلك الكلمات ، قالت : عندما جاء أبوشداد في تلك الليلة إلى بيت نيفيس ليرى روساريو استدعاها جانبا

- هل تعرفين أن لك أخا ليس رجلا ولا سبينا

- ...

- وأنه يتكور مثل الأرانب عندما تسمع أصواتا

وقد دافعت أختي عني ، لكن ذلك لم يفدها في شيء فالرجل كان قد كسب ، كسبني أنا ، وهي المعركة الوحيدة التي خسرتها لأنني لم أمض في وجهتي .

- اسمعي ، يا حمامة ، هيا نتحدث عن شيء آخر ماذا معك .

- ثمانى بيزينات .

- لا غير ؟

- لا غير . ماذا تريد ؟ الأيام وحشة .. !

وعندئذ ظل يضربها أبوشداد بالعصا على وجهها حتى تعب ..

وبعد ..

- تعرفين أن لك أخا لا هو رجل ولا شيء ؟



وقد استحلقتني أختي بصحتها أن أبقى في القرية . أما شوكة الضلع فقد بدأ أنها تحركت قليلا ، لماذا لم أنتزعها في ذلك الوقت هو أمر لا أدرى به حتى الآن .

أعنفد أنك سوف تعذرني على قلة النظام الموجود في الحكاية لأنني أتبع الشخص ولا أتبع التسلسل الزمني ، مما يجعلني أقفز من البداية للنهاية ومن النهاية للبداية مثل الاستاكورا المضروبة .

ولكن هذه الحكاية بطريقة ما ، ليست طريقتنا هذه . يمكن النظر إليها على هذا النحو ، لأنني أخرجها كيفما اتفق ، عفو الخاطر ، دون أن أتوقف عند البناء لتصبح رواية ، لأنني فضلا عن احتمال ألا يتيسر لي ذلك ، سوف أظل معرضا لخطر الذي يمكن أن يأتيني عندما أبدا أتكلم وأتكلم حتى أختنق بسرعة وأتوقف ولا أجد لنفسى مخرجا .

أن السنوات تمضي فوقنا مثلما تمضي فوق كل الناس ، والحياة في بيتي كانت تسير بنفس طرقها المعهودة ، وإذا كان لا ينبغي على أن أخترع ، فإن هناك أخبارا لا تتخيلها يمكن أن أقدمها لك عن ذلك الحين .

فبعد مولد الطفلة بخمسة عشر عاما ، وعندما كانت أمي ممصوفة تماما ، وأشباح الزمن الماضي ماثلة أمامنا كان أقل شيء يمكن أن نفكر فيه هو أن تمنحنا أمي أخا جديدا ، لقد امتلأت بطن العجوز ، وتخيل سيادتكم ممن . لأنني أشك أنها في تلك الفترة كانت على صلة بالسيد رفائيل ، ولم يبق إلا أن ننتظر الأيام المحددة حتى نستقبل شخصا جديدا في الأسرة ،

وقد اقترن مولد المسكين ماريو - هكذا أطلقنا على الأخ

الجديد - بكثير من الخواث والمضايقات أكثر من أى شيء آخر .  
لأنه لم يكن يكفى أن يبلغ السيل الزبى . وكان أصوات أمى وهى  
تضع كانت هى الأخرى قليلة . حتى يتفق كل هذا مع مذبذبات  
الذى لو لم يكن ماساويا إلى أقصى حد لجعل الإنسان يعرف فى  
الضحك عندما يفكر فيه هكذا فى برود . وكان أمى قد خلا يومين  
محبوسا فى الخزانة عندما أتى ماريو إلى العالم . ومع ذلك  
عقور . وبالرغم من أنه فى البداية كان يبدو مضطرا .  
الكلب . فقد اضطروا بعد ذلك أن يضعوا له ضوابط .  
جميعا فى حالة ترقب . وقد أخبرتنا السيدة انحرافيا .  
يمكن أن تؤدى إلى أجهاض أمى . وبما أن المسكين لم يكن له  
علاج . اخترنا أن نحبس بمساعدة بعض الجيران .  
قدر الاستطاعة . لأنه كان يطلق . عضات .  
أى واحد يقترب منه بدون حذر . وسألت حتى الآن .  
الساعات بأسى وخوف . يا إلهى !

كم كان حجم القوة التى احتجنا إليها جميعا حتى نفل من  
هياجه !

كان يطأ الأرض مثل اسد . ويقسم أنه سوف يغتلبنا جميعا .  
وكانت نظرتة تقذف بالشر . وأنا أقسم أنه كان يمكن أن يغتلبنا  
فعلا لو أن الله أراد ذلك . يومان إذن ظل فيهما محبوسا . بطلق  
تلك الأصوات . ويرفس الباب بقوة حتى اضطربنا أن نسمع  
ببعض الاخشاب . ومن ثم لا يدهشنى أن ماريو . الذى حركه هو  
الآخر صياح أمه . قد جاء إلى العالم مرعوبا وفيه بلاهة . وقد  
أنتهى الحال بابى إلى الصمت فى الليلة التالية - وكانت ليلة يوم  
الملوك - وعندما ذهبنا لنخرجه معتقدين أنه مات . وجدناه .  
هناك مرميا على الأرض . والفزع باد على وجهه وكأنه قد دخل فى  
الجحيم . وقد أصابنى رعب كبير عندما وجدت أمى . بدلا من أن  
تبكى - كما كان منتظرا - تأخذ فى الضحك . ولم أجد بدا من أن



أَكْتَمَ الدَّمُوعَ الَّتِي كَانَتْ تَرِيدُ أَنْ تَتَرَقَّرَ فِي عَيْنِي عِنْدَمَا رَأَيْتُ  
الْجَنَّةَ . حَيْثُ كَانَتْ الْعَيْنَانِ مَفْتُوحَتَيْنِ ، وَمَلِيئَتَيْنِ بِالدَّمِ . وَالْفَمُ  
نَاصِفٌ مَفْتُوحٌ . وَفِيهِ اللِّسَانُ بِنَفْسٍ وَمَمْدُودٌ نَصْفَهُ فِي  
الْخَارِجِ . وَعِنْدَمَا حَانَتْ لِحْظَةُ دَفْنِهِ بَارَكَنِي السَّيِّدُ مَانُوبِلُ  
الْقَسْبِيسِ عِنْدَمَا رَأَيْتُ . وَأَنَا لَا أَتَذَكَّرُ كَثِيرًا مِمَّا قَالَهُ لِي . فَقَدْ  
حَدَّثَنِي عَنِ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ وَعَنِ السَّمَاءِ وَالْجَحِيمِ . وَالْعِذْرَاءِ  
مَرْيَمَ زَوْجَةَ الْكَرِيِّ وَالَّذِي . وَعِنْدَمَا عَنِ لِي أَنْ أَقُولَ لَهُ بِالنِّسْبَةِ  
لِلْكَرِيِّ وَالَّذِي . أَنْ الْأَفْضَلُ هُوَ إِلَّا أَتَذَكَّرُهُ . قَالَ لِي السَّيِّدُ مَانُوبِلُ  
وَهُوَ يَضَعُ أَمَامَهُ بَدِيئَةً عَلَى رَأْسِي . إِنْ الْمَوْتُ يَحْدُلُ النَّاسَ مِنْ  
مَمْلَكَةٍ إِلَى أُخْرَى . وَإِنَّهُ أَيْ الْمَوْتُ ، يَغَارُ مِنْ أَنْ تُكَرَّدَ مِنْ أَدْرَكَهُ  
لَكِي بِوَضْعٍ أَمَامَهُ حَكَمَ اللَّهُ . حَسَنًا ، لَمْ يَكُنْ كَلَامُهُ هَكَذَا ، وَإِنَّمَا  
نُطِقَ بِكَلِمَاتٍ رَقِيقَةٍ جَدًّا وَمُوزُونَةٍ ، وَلَكِنْ مَا أَرَادَ أَنْ يَقُولَهُ لِي لَيْسَ  
بَعِيدًا فِي فُحْوَاهُ عَمَّا كَتَبْتُهُ هُنَا . وَمِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ كَلَّمَا رَأَيْتُ السَّيِّدَ  
مَانُوبِلَ أَحْيِيهِ وَأَقْبَلَ يَدَهُ . وَلَكِنِّي عِنْدَمَا تَزَوَّجْتُ قَالَتْ لِي زَوْجَتِي  
إِنَّهُ كَانَ يَبْدُو مَخْنَثًا وَهُوَ يَفْعَلُ تِلْكَ الْأَشْيَاءَ وَمِنْ ثَمَّ فَإِنِّي لَمْ  
أَسْتَطِعْ أَنْ أَحْيِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ . وَقَدْ عَلِمْتُ فِيمَا بَعْدَ أَنْ السَّيِّدُ مَانُوبِلُ  
قَالَ عَنِّي إِنَّنِي كُنْتُ بِهَذَا الشَّكْلِ مِثْلَ وَرْدَةٍ وَسَطِ كَوْمٍ مِنَ الزُّبَالَةِ .  
وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَحْسَسْتُ بِرَغْبَةٍ فِي أَنْ أَخْنُقَهُ .  
وَبَعْدَ ذَلِكَ هَدَأَتْ . وَذَلِكَ أَنِّي ذُو طَبِيعَةٍ حَادَّةٍ وَلَكِنْ الْأَمْرُ يَنْتَهِي بِي  
بِسُرْعَةٍ إِلَى النِّسْيَانِ . وَإِذَا فَكَّرْتُ فِي الْأَمْرِ جَدًّا ، لَمْ أَكُنْ أَبَدًا  
مُتَآكِدًا مِنْ أَنِّي فَهَمْتُ الْأَمْرَ مِنْ كُلِّ جَوَانِبِهِ ، فَرُبَّمَا لَمْ يَقُلِ السَّيِّدُ  
مَانُوبِلُ شَيْئًا - وَلَا يَنْبَغِي أَنْ نَصْدُقَ النَّاسَ فِي كُلِّ مَا يَنْقُلُونَ -  
وَحَتَّى لَوْ قَالَ ذَلِكَ ..

مَنْ يَعْرِفُ مَاذَا أَرَادَ أَنْ يَقُولَ ! مَنْ يَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَرِيدُ أَنْ  
يَقُولَ مَا فَهَمْتُهُ أَنَا ! .

وَلَوْ أَنَّ مَارِيُو كَانَتْ قَدْ تَفْتَحَتْ حَوَاسَهُ عِنْدَمَا تَرَكَ هَذَا الْوَادِي  
مِنَ الدَّمُوعِ ، فَمِنْ الْمُؤَكَّدِ أَنَّهُ كَانَ سَيُغَادِرُهُ غَيْرَ رَاضٍ عَنْهُ . لَقَدْ

عاش قليلا بيننا ، ويبدو أنه كان قد شم رائحة الميراث الذى ينتظره ، وفضل أن تكون تضحيته فى صحبة البرءاء فى البرذخ . ويعلم الله أنه أصاب فى اختيار الطريق ، فكم ادخر من آلام عندما اختصر سنوات ، فعندما غادرنا لم يكن قد أكمل عشر سنوات ، لكنها كانت قليلة بالنسبة للكثير الذى كان سيعانيه ، وكافية حتى ينطق بالكلام ويمشى . وهما شيئان لم يعرفهما على الإطلاق . فالمسكين لم يتجاوز مرحلة الحبو على الأرض وكأنه حية ، ومجرد التهتهة بالحنجرة والأنف وكأنه فأرة . وهذا هو الشيء الوحيد الذى تعلمه . ففي السنوات الأولى من حياته أصبحنا كلنا نحس أن البائس الذى ولد عبيطا لابد أن يموت عبيطا ، وقد ظل عاما ونصف العام حتى ظهرت له أول عظمة فى الفم وعندما ظهرت جاءت بعيدة عن مكانها لدرجة أن السيدة إنجراثيا التى كانت فى معظم الأحيان عمادا لنا ، اضطرت أن تنتزعها له بالدوبارة حتى لا تشك له لسانه ، وفى نفس الأيام تقريبا ظهرت له حصبة فى العجز ( معذرة ) ، ولعلها جاءت ، كما نعلم ، من الدم الكثير الذى ابتلعه عندما خلعوا له السن ، وهذه الحصبة جعلت ردفه وكأنهما مسلوخان ، واثرت على لحمه الحى لأن البول كان يختلط بالقريح الناتج عن البثور ، وكان الطفل يبكى بكاء شديدا لدرجة أن أى قلب مهما كان متحجرا لابد وأن يهتز لبكائه .. ثم مرت فترة لا بأس بها من الهدوء ، كان الطفل خلالها يلعب بزجاجة هى أكثر شيء يلفت انتباهه ، أو يستلقى فى الشمس ليستدفىء ، فى الحوش أو أمام باب الشارع . وهكذا مضت حياة هذا البريء طيبة فى بعض الأحيان وسيئة فى أحيان أخرى . لكنه أصبح أكثر هدوءا حتى جاء يوم - والطفل لديه أربع سنوات - قلب الحظ له فيه ظهر المجن ، دون أن يبحث عن ذلك أو يرغب فيه ، ودون أن يضايق أحدا ، ودون أن يعصى الله ، ذلك أن خنزيرا ( معذرة ) أكل له أذنيه ، وقد

وضع له السيد رايموند ، الصيدلى ، مسحوقا أصفر ، من  
السيروفورم ، وكم كان المرء يصاب بالألم وهو يراه مصفرا ،  
وبدون أذنين ، لدرجة أن نساء الجيران جميعهن كن يحملن  
إليه - بدافع الشفقة - لقمة القاضى أيام الأحاد ، وبعضهن يأتين  
باللوز ، وآخريات يأتين بالزيتون الموضوع فى الزيت ، أو فى  
قليل من السجق .. مسكين ياماريو !

كيف كان يشكرهن على هذه الأشياء بنظرة من عينيه  
السوداوين .

ولو أنه كان فى حالة كبيرة من السوء حتى ذلك الحين فإن  
سوءا اكبر كان ينتظره بعد مسألة الخنزير هذه ( معذرة ) كان  
يقضى الأيام والليالى يبكى ، ويعول مثل شخص مهمل ، وبما أن  
الصبر القليل لدى الأم قد نفذ فى الوقت الذى كانت فيه فى أشد  
الحاجة إليه ، أى إلى الصبر ، فقد كان يقضى الشهور ملقى على  
الأرض ، يأكل مايلقون به إليه ، وكان شديد القذارة لدرجة اننى ،  
على الرغم من أنى - ولماذا نكذب ؟ - لم أكن أغتسل كثيرا ، كنت  
أصاب بالقرف منه . وعندما كان يرى خنزيرا ، ( معذرة ) أمامه ،  
وهو شىء يحدث كثيرا فى الأقاليم ، كان الأخ يصاب بحالة هياج  
ويبدو مثل المجنون ، يصيح بقوة أكثر بكثير من العادة ،  
ويتعجل فى الاختفاء خلف أى شىء ، ويظهر الفرع على وجهه  
وعينيه حتى كنت أشك فى أن هذا الفرع يمكن أن يوقف لوسيف  
نفسه ( امير الملائكة المتمردين - المترجم ) من النزول إلى الأرض .

وأذكر أنه ذات يوم - كان يوم إحد - فى إحدى هذه الملمات  
كان فى حالة رعب فظيعة ، وفى حالة غيظ من الداخل ، وقد عن  
له أن يهاجم السيد رفائيل فى هريه - والله هو أعلم لماذا وكان  
السيد رفائيل فى البيت . لأنه منذ موت أبى ، كان يدخل البيت  
ويخرج وكأنه فى أرض مفتوحة ، وكان أسوأ شىء خطر على بال  
المسكين هو أن يعض العجوز فى ساقه ، لكنه لم يفعل ذلك أبدا ،



لأن العجوز ركلة بالرجل الأخرى ، ركلة فى أحد جروحه جعلته  
مثل الميت فاقد الاحساس ، وتدفق الدم منه غزيرا حتى لقد ظننت  
أن دمه انتهى .. وكان العجوز يضحك وكأنه قام بعمل بطولى  
ومنذ ذاك اليوم أحسست نحوود بكراهية شديدة . وأقسم لك  
بشرفى ، أنه لو لم يأخذه الله من أمامى لفعلت به الإعاجيب فى  
حالة ما إذا أتيت لي الفرصة لذلك

وقد ظل الطفل مرميا بطوله كله ، بينما أمى لا تقدم لأخذ  
- وأؤكد لك أنى أحسست بالفرغ فى تلك اللحظة التى رايتها  
فيها لا مبالية - وكانت تضحك ووجهها للسيد رفائيل - أما ابى  
والله هو المطلع ، فلم تنقصنى الإرادة لانهاضة . ولكى فضلت  
ألا أفعل ذلك .. ولو أن السيد رفائيل فى تلك اللحظة اتهمنى  
باللين ، أقسم أنى كنت سأسحقه أمام أمى

ثم أنى توجهت نحو البيوت فى محاولة لكى أنسى . وفى  
الطريق قابلت أختى - التى كانت فى ذلك الحير تنجول فى القرية  
- وقد حكيت لها ما حدث ، ورايت الغضب يطل من عينيها . حتى  
جعلنى ذلك أتصور أنها يمكن أن تكون أسوأ عدو . وتذكرت لا  
أدرى لماذا ، أبوشداد ، وضحكت عندما خطر ببالى أن أختى  
يمكن أن تضع له تلك الأعين .

وعندما عدنا إلى البيت ، بعد ساعتين طويلتين من هذه  
الواقعة ، كان السيد رفائيل قد ذهب ، وكان ماريو مازال ملقى فى  
نفس المكان حيث تركته ، يئن بصوت خفيض ، وفمه فى الأرض .  
والجرح أكثر قتامة وسوءا حتى لقد كان يبدو مثل شخص  
كوميدى صائم ، أما أختى التى اعتقدت أنها كانت ستثير مشاجرة  
فقد رفعتة من الأرض كي تسنده مضطجعا فى الصندوق .. فى  
ذلك اليوم بدت لى فائقة الجمال ، بلباسها ذى اللون الأزرق على  
مثال لون السماء ، ومزاجها كأم بريّة ، لم تكن ولن تكون كذلك .

وعندما غادر السيد رفائيل المكان ، تناولت أمي ماريو ،  
ووضعتة في حضنها ، وضئت قاعق له جرحه طول الليل ، مثل  
كلبة تلحس صغارها ، وقد أسلم الصبي نفسه للحب وهو  
يبتسم .. ظل نائما ، رافقت علي شفقتيه إتيارة تدل على أنه كان  
يبتسم . كانت تلك الليلة ، مأساوية ، هي السرة الوحيدة في حياته  
التي رأيت فيها يبتسم

وقد مرت فترة بعد ذلك لم ينتكس خلالها . ولكن بما ان الذى يطارد القدر لا يمكن ان يفر منه ولو كان فى بروج مشيدة . فقد جاء يوم لم نعتز عليه فيه فى أى ركن . ثم ظهر مختنقا فى دن من الزيت وجدته اخفى روساريو . كان فى هذا الوضع يبدو مثل هامة عصفت بها الريح مقلوبا على حافة الدن وانفقه مسنودة على طين القاع . وعندما رفعناه كان خيط رفيع من الزيت يسقط من فمه مثل فتيل من الذهب ولعله كان يتسرب ايضا إلى بطنه . اما شعرد الذى كان فى حياته بلون الرماد المنطفىء . فقد كان يسطع ببريق ناظر جعلنا نظن انه بموته قد بعث . وهذا هو الشيء الغريب الذى اذكر من موت ماريو

اما امى فابنها لم تبك ايضا على موت اسبها . ولا بد ان اعماق هذه المرأة كانت جافة جدا مثل قلبها الشديد القسوة لدرجة انه لم تترقرق فى عينيها بعض الدموع التى تتسرب بها إلى احساسها بمأساة الطفل ... وبالنسبة لى استطيع ان اقول . ولا اشعر بالعار من ذلك . انى قد بكيت متلما بكى اخفى روساريو . وان كراهيتى لامى بلغت مبلغا كبيرا . وبما اسى كنت انشوا بسرعة . فقد أصبحت أخاف من نفسى . إن المرأة التى لا تبكى هى مثل النبع الذى لا يخرج منه الماء . لا تصلح لشيء . أو هى مثل طائر السماء الذى لا يصدح . وينبغى . إذا اراد الله . ان يسقط جناحاه . لأنه إذا نقصت الطيور واحدا فلن يكن ثمة أى ضير فى ذلك .

وقد فكرت كثيرا . فى كثير من الأحيان . ومازلت أفكر حتى الآن هل يجب على أن أقول الحقيقة . وأوضح السبب الذى به فقدت



احترامى لأمى . أولاً . ثم حبنى لها . ثم "شكّلها" كله بمرور السنوات : وقد فكرت كثيرا فى ذلك لأنى كنت أريد أن أستوضح جيدا من ذاكرتى ماهو الوقت الذى لم تعد فيه بالنسبة لقلبى أمّا ، وفى أى وقت . بعد ذلك . تحولت إلى عدو . عدو غليظ ، ولبس هناك كراهية أعظم من كراهية الدم الواحد : عدو امتص كل ما لدى من المحبة . لأن الإنسان لا يكره بشدة إلا من يتفق معه فى الكراهية . الناس دائما تكره الشبيه . وبعد تفكير كثير ، وبعد أن استوعبت كل ما سبق ، لم يبق لى إلا أن أؤكد أن احترامى لها كنت فى الحقيقة من أجل ما تبقى . عندما لم أجد فيها فضيلة واحدة يمكن أن أشير بها . لأن يوحى من الله يمكن أن انقلها ، ثم إنها غادرت قلبى . ولم أبق فيها كل هذا السوء . الذى لم يكن يتسع له صدرى . أو ما يخال الوصول إلى الكراهية فإنى تأخرت بعض الوقت . لم أرغ ذلك . لأن الحب والكراهية ليسا مسألة يوم أو يومين . أو أن توقفا عند أيام موت ماريو فيمكن أن أقول إن بلوغى مرحلة الكراهية لها لا تكاد تتعدى تلك الأيام . وقد قمنا بتجفيف جسد الطفل بضمادات من الكتان حتى لا يكون كثير الشحم عند السؤال . وجهزناه ببعض الأقمشة التى كانت موجودة فى المنزل . وبنعلين من القنب ذهبت أنا لإحضارهما من القرية . ورباط عنق صغير خبازى اللون معقود حول الرقبة مثل فراشة أقبلت فى براءتها كي تقف على ميت . أما السيد رفائيل الذى يبدو أنه كان يحس بالأسى تجاه الميت ، بينما كان يعامله وهو على قيد الحياة بدون شفقة ، فقد ساعدنا فى اعداد التابوت ، وكان الرجل يذهب ويجىء من جانب لآخر فى نشاط وفخار كأنه عروسة . تارة يحمل بعض المسامير ، وتارة يحمل لوحا ، وربما يأتى بزجاجة السبيداج ، وقد وجدتني أركز كل اهتمامى فى نشاطه وإحساسه بالفخر ، لأنى ، دون أن أعرف ، لا فى ذلك الحين ولا الآن ، لماذا كان يفعل ذلك ، فقد أحسست وجدانيا أنه من أعماقه كان يستحم فى مياه الورد . وعندما قال بحركة فيها شرود :

- لقد قبضه الله إليه ' يا ملائكة السماء ! - جعلني أغرق في التفكير لدرجة أن ذلك بكلفني الآن عملاً شاقاً إذا حاولت أن أستعيد ما حدث لي حينئذ . وبعد ذلك كان بكبر الجملة مثل شطر من أغنية . بينما هو يقوم بدق المسامير في الألواح . أو يقوم بالدهان .

- يا ملائكة السماء ! يا ملائكة السماء ! - وكانت كلماته تدق في قلبي وكأنها ساعة في الداخل . ساعة سوف ينتهي بها الأمر أن تمزق صدرى . ساعة تسمع لكلماته المبطلة قليلاً قليلاً وكأنها تخرج بعنابة . وعيناه الرطبتان الزرقاوان مثل عيني الأفعى . والآن كأننا ننظران إلى هي مجازلة كبيرة لأحداث نوع من التلاقى . في الوقت الذي لا يشعرون في شيء تحاميه إلا الكراهية الشديدة العميقة ومازالت أدمى نفسي تلك الساعات - يا ملائكة السماء ! يا ملائكة السماء !

تأمل ! ابن الذكارة كيف كان يمشي على التعلب ولكن فلنحدث عن شيء آخر

وأنال لم أتوصل أبداً إلى الحقيقة . الأمر الذي لم أفكر في ذلك أبداً في حياته . كيف ذكر أبداً حتى وفيت ما كنت اتخيل الملائكة كأنها تسقياء قرداء في سجن موبلة برفاء أو وردية . وفي وقت آخر كنت اتخيلها بلور المسحب وباحلة جداً أشبه بسيقان نبات القمح . ومع ذلك فإن ما أستطيع أن أؤكد هو أنني تخيلتها دائماً كأنها مختلفة عن أخرى ماريو . وهذا الأمر بالتأكيد هو الذي جعلني أفكر في أن خلف كلمات السيد رفائيل قط يتربص ونية شديدة السوء يكون بعدها الوثوب كما هو منتظر من إنسان في مثل خسته .

وقد كانت عملية الدفن بائسة ومملة ، على النحو الذي حدث منذ سنوات سابقة مع أبي ، إذ لم يمش خلف الجنازة إلا عدد قليل من المشيعين . حوالي خمسة أو ستة أشخاص . بدوز مبالغة وهم : السيد مانويل ، وسانتياجو مساعد القس ، ولولا .

وثلاث أو أربع نسوة عجائز وأنا ، فى الأمام كان يمشى  
سانتياجو ، حاملا الصليب . يطلق صغيرا خفيفا ، ويضرب  
الأرض برجليه . وخلفه النعش . وفى الخلف نجد السيد مانويل  
بلباسه الأبيض المعروف فوق عباءة القسس ، حيث كان يبدو مثل  
مؤزر . وخلفه كانت تاتى العجائز . بنواحيهن وعويلهن ، حتى لقد  
كان يبدو لمن يراهن انهن جميعا أمهات ذلك الفقيد الذى كان  
يودع الأرض

وكانت لولا فى ذلك الحين بمثابة نصف خطيبتى . وأقول  
نصف خطيبتى فقط . لأنه على الرغم من تبادلنا للنظرات مع بعض  
الميل ، إلا اننى لم أجري أبدا ان اقول لها كلمة حب واحدة . فقد  
كنت احس بخوف مما ان يكون نظرتها لى باحتقار ، ولو أنها فى  
غثير من الاحيان كانت نتعمد ان تقف فى طريقى حتى أت فى  
الأمس . ولكن الخجل كان هو الذى يفوز على دائما ، فأخذت لأجل  
الموضوع ثم أوجله أكثر وأكثر . حتى استطال أكثر مر  
وكان عمري فى ذلك الحين ثمانية وعشرين عاما أو ثلاثين . أما  
فى فكانت أقل فى السن قليلا من أختى روساريو ، يعنى حوالى  
واحد وعشرين أو اثنين وعشرين عاما . كانت فارعة القوام .  
مصحبة ألوان سوداء الشعر . ونها عينان فى غاية العمق ، وشدة  
اللون . وكانت رفيعة الخصر ومشوقة القد .  
وظنوا نساء عذراء معروف من سرعة النمو عند النساء . فقد كانت  
تجس السرد أمامها يظن أنه أمام ام . ومع ذلك فقبل ان امضى الى  
الأمام . وأخاطر بإلقاء هذا الجزء فى عالم النسيان ، أريد ان اقول  
لك . حتى اظل موصولا بالحقيقة . انها فى تلك الايام . كانت  
سليمة تماما مثلما ولدت . وليست لها أية صلة باى انسان وكأنها  
تلميذة مبتدئة . وهذا شئ أحب ان أؤكد عليه حتى لاأخذ أحد  
أية فكرة محرفة عنها . وهو ماسوف تفعله بعد ذلك هى نفسها مع  
ضميرها . والله وحده هو الذى يعرف ذلك حتى النهاية . ولكن  
ماكانت تفعله فى ذلك الزمن . أنا متأكد تماما أنها كانت بعيدة كل  
البعد عن أية فاحشة . ومن ثم فانى لن اتردد لحظة واحدة فى ان

اقدم روحى للشيطان اذا اثبت لى عكس ذلك ، كانت تمضى بكثير من القوة والاطمئنان وبكثير من السهولة والخيلاء لدرجة ان الانسان لايمكن ان يتصور أنها مجرد فلاحه فقيرة ، ناهيك عن خصلات شعرها . المعقودة فى صغيرة واحدة كبيرة تحت الرأس ، وهذا الاحساس كان يملكنى . عندما مرت السنوات وبدأت أتحكم فيها كزوج . كنت احس برغبة فى ملازمة خديها . حيث كان يكمن فيهما كل ما فيها من رقة وكل ما يضيوع منها من عبير . مثل شعاع الشمس أو رائحة الزعتر أو قطرات العرق الباردة التي كانت تظهر فى عذارها عندما تحس بالاختناق

وإذا عدنا الى ما كنا فيه نقول ان عملية الدفن قد تمت بسهولة ، ذلك ان الحفرة كانت جاهزة . ولم يبق الا ان نضع اخي داخلها ثم نردم عليه بالتراب . وقد أدى السيد مانويل بعض الصلوات باللاتينية ، وركعت النساء ، وعندما انحنت لولا . ظهر ساقاها . بيضاوان ملفوفان مثل السجق ، فوق الجورب الاسود . وانى احس بالخزي مما سوف اقول ، ولكنى ادعو الله ان يعمل على انقاذ روحى لقاء ما يكلفنى هذا من جهد . فى تلك اللحظة احسست بالسعادة لموت اخي . فقد كانت ساقا لولا تسطعان مثل الفضة . وقد اخذ الدم يغلى فى جبهتى . والقلب بدا وكأنه يريد ان يقفز من صدرى .

ولم أر الناس وهم عائدون ، لا السيد مانويل ولا النساء . كنت مثل المجنون ، عندما بدأت اعود الى الاحساس بالحياة وأنا جالس على الأرض التي لم تكد تسوى فوق جثة ماريو . لماذا بقيت هناك الوقت الذى مر على ، انهما شيئان لم اتحقق منهما ابدا . وأنا أذكر ان الدم ظل يغلى فى صدغى ، وأن القلب كان لديه رغبة فى ان يطير ، كانت الشمس تتأهب للغروب ، وهى ترسل اشعتها الاخيرة فوق شجرة السرو البائسة . رفيقتى الوحيدة . كان الجو حارا ، وقد سرت رعشة فى جسدى كله ، لم



أكن استطيع الحركة ، كنت مسمرا بالارض وكأني أنظر الى ذئب .  
كانت لولا واقفة بجانبى ، صدرها يرتفع وينخفض عند  
التنفس

- وأنت أيضا ؟

- كما ترى !

- ماذا تفعلين هنا ؟

- لاشيء .. لاشيء ! انا هنا ..

عندئذ وقفت ومددت ذراعى نحوها .

- ماذا تفعلين هنا ؟

- لاشيء ! الا ترى ؟ لاشيء !

كانت لولا تنظر الى نظرة تشير الرعب .. وكان صوتها مثل

صوت يأتى من العالم الآخر ، رصينا وخافتا كصوت شبح .

- انت مثل اخيك !

- أنا ؟

- انت ! نعم !

.....

كانت معركة شرسة ، وكانت وهى ملقاة على الأرض أجمل من  
أى وقت مضى .. وأخذ صدرها يرتفع وينخفض عند التنفس  
بأسرع من ذى قبل ، وقد جذبتها من شعرها ودفعتها على الأرض  
. وكانت هى تقاوم ، وتحاول ان تفلت .. فعضضتها بقوة حتى  
بزغ منها الدّم .

.....

- هل هذا ماتريده ؟

- نعم !

واخذت لولا تبتسم لى بأسنانها المتناسقة وتمسح على رأسى

بيديها .

- لست مثل اخيك !..

كانت الكلمات خارجة من شفيتها تحمل بعض الرنين .

وكانت الأرض رخوة ، وهذا ما تذكره جيدا . وعلى التراب  
نصف دسنة من شقائق النعمان ، من اجل اخي المتوفى . ست  
نقط من الدم ..

- لست مثل اخيك . !

- هل تحبينني ؟

- نعم !

وقد ارادت العناية الالهية ان تمر خمسة عشر يوما منذ ان كتبت ماهو مذكور من قبل ، وكنت خلال هذه الايام مشغولا في تحقيقات وريارات للدفاع من جهة ، وفي الانتقال الى هذا المكان الجديد من جهة اخرى ، فلم تتوفر لحظة واحدة خالية كي اتناول القلم والآن بعد اعادة قراءة هذه الحزمة ، من الاوراق ، وهى ليست كبيرة بعد ، اجد الافكار المتباينة تختلط فى رأسى ، بكثير من الابدفاع وكثير من الدوار ، لدرجة انى مع كثرة تفكيرى ، لم اتوصل بعد الى اية رسالة يمكن ان اتوقف عندها . نوازل كثيرة ، كما رايت شئ التى اقصها واحس ان قواى سوف تخور عندما يواحه مابعدى الى حتى الان ، فمارلت ذلك البائس ، وانى لاصاب بالرعب عندما ارى كم صارت الذاكرة دقيقة جدا سعى . فى هذه اللحظات التى ننقل فيها كل احداث حياتى - وخاصة انه لايمكن العودة الى الوراء - مكتوبة فى هذه الاوراق بنفس الوضوح الذى يمكن ان تنقش به على لوح من الحجر ، شئ مضحك - وحزين ايضا ، والله خير العالمين ! - ان اتوقف لأتأمل لو ان جهد التذكر الذى افعله هذه الايام حدث لى فى سنوات سابقة ، فلعلى ، فى هذه الساعات ، بدلا من ممارستى للكتابة فى زنزانه ، كنت اتشمس فى الحوش ، او اصطاد الاسماك فى القناة ، او اجرى خلف الارانب فى الجبل ، ولعلى كنت افعل شيئا اخر مختلفا عن هذه الاشياء التى تفعلها - بدون تثبيت - الغالبية العظمى من الناس ، ولعلى كنت حرا ، مثلما هم احرار - دون ان يتثبتوا ايضا - الغالبية العظمى من الناس ، ولعله كانت امامى سنوات من الحياة ، لايعلمها الا الله ، مثلما عند الغالبية العظمى

من الناس ، دون ان يدركوا ان هذه السنوات يمكن ان تنقضى ببطء .

والمكان الذى نقلونى اليه افضل ، فعبر النافذة ترى حديقة صغيرة منظمة بعناية ومتأنقة وكأنها صالة صغيرة ، وخلف الحديقة يمتد السهل حتى الهضبة . وهذه الهضبة لونها كستنائى مثل جلد البشر ، وتمر منها - فى بعض الاحيان - قوافل البغال التى تسير نحو البرتغال . والحمير الخبابة التى ننضى نحو الأكواخ . والنساء والأطفال الذين يذهبون فقط إلى البحر وأنا أتنفس الهواء ، الذى يدخل ويخرج من الزنزانة لأنه لا يحمل معه عند خروجه شيئاً ، وهو نفس الهواء الذى يمكن أن يتنفسه غداً أو فى أى يوم صاحب البغال المار . وأنا أرى الفراشة ذات الألوان الكثيرة تطير حائمة فوق نباتات عباد الشمس ، وتدخل الزنزانة لتدور دورتين وتخرج . لأنها لن تحمل معها شيئاً . وربما ينتهى بها الأمر أن تقف أحياناً على مخدة المدير ... وأنا أتناول بالقبعة الفار الذى كان يأكل ما يتخلف عني ، وأنظر إليه ، ثم أتركه - لأنه لا يحمل معه شيئاً - وأرى كيف يختبئ متسللاً من ممر دقيق جداً حتى يحتوى فى جحره ، وهو الجحر الذى يخرج منه لكى يأكل أكله الغريب . الذى يكون نزيل الزنزانة لفترة محددة ، لابد أن يخرج منها إلى الجحيم فى معظم الأحيان ...

ولعلك لن تصدقنى إذا قلت لك إن مشاعر الحزن والضيق فى هذه اللحظات تغمرنى ، حتى لأؤكد لك أن الندم الذى أحس به ليس أقل من الندم الذى يصدر عن قديس : ولعلك لن تصدقنى ، لأن المعلومات التى تعرفها عني شديدة السوء ، وأن رأيك بشأنى قد تحدد على هذا النحو ، ولكن مع ذلك ... وأنا أقول لك هذا ، ربما لمجرد أنقول لا أكثر ولا أقل ، وربما لمجرد أنى لم أزح من دماغى فكرة طرأت عليه وأنا واثق أنك سوف تفهم ما أقول وتصديق ما لم أقسم عليه بشرفى لأن القسم فى هذه المسألة لن يكون له فائدة تذكر ... إن المرارة التى تبلغ حلقى تبدو وكأن



القلب قد أصبح يُصنع فيه عصير الصبر بدلا من الدم : إنها تصعد وتهبط في صدرى ، تاركة لى طعاما حامضا فى سقف الحلق ، ثم إنها تبلل لسانى باريجها ، وتجفف أعماقى بهوائها الثقيل السيىء الذى يشبه هواء مشكاة .

لقد توقفت فترة عن الكتابة : ربما لمدة عشرين دقيقة ، وربما لمدة ساعة ، وربما ساعتين ... وعلى الطريق كان بعض الأشخاص يعبرون ، وكم كنت أراهم جيدا من نافذتى ! ولعلمهم لم يكونوا يفكرون أنى أنظر إليهم ، وهم يمضون بشكل طبيعى . كانوا عبارة عن رجلين ، وامرأة ، وطفل : وبدا أنهم سعداء وهم يمشون على الطريق . والرجلان كل منهما يناهز عمره الثلاثين عاما . أما المرأة فأقل قليلا : والطفل لا يعدو ست سنوات . كان يمشى غير منتعل ، ويضرب فى الأرض مثل الماعز حول الأعشاب . ويرتدى قميصا صغيرا يترك بطنه للهواء . كان يقفز خطوات إلى الأمام ثم يتوقف ، ويرمى أى طائر يعبر بحجر ... ولم يكر يشبه فى شىء أخى ماريو ، لكن مع ذلك كم ذكرنى به ! ولابد أن المرأة كانت هى الأم ، وكان لونها قمحيا مثل كل النساء ، والفرح يغمر جسمها كله حتى أن المرء ليحس بالسعادة وهو ينظر إليها . كانت أما مختلفة تماما ، ومع ذلك ، لماذا كانت تذكرنى كثيرا بأمى ؟

سوف تعذرنى ، ولكنى لا أستطيع أن أواصل ولا ينقصنى إلا القليل حتى انفجر فى البكاء ... وأنت تعرف جيدا مثلى ، أن الرجل الحقيقى لا يمكن أن يترك لنفسه العنان كي ينفجر فى البكاء مثل أية امرأة .

سوف أستمّر فى حكايتى : وهى حزينة ، أعرف ذلك جيدا ، ولكن يبدو لى أن هناك ما هو أشد منها حزنا وهى هذه الفلسفات التى ليس مؤهلا لها قلبى : هذه الآلة التى تصنع الدم ويمكن لأى طعنة أن تريقه ...

وقد استمرت علاقتي مع لولا على الخط الذي لن يخفى عليك  
وبمرور الوقت ، ولم تكن قد مضت حتى ذلك الحين خمس شهور  
على دفن أخى الميت وجدت نفسى أفاعاً - وتصور كيف تكون  
الأشياء - بخير . كان ينبغي ألا يكون مفاجئاً بالنسبة لى  
كان ذلك فى يوم القديس كارلوس ، فى شهر نوفمبر . وكنت قد  
توجهت إلى بيت لولا مثلما ظللت أفعل كل الأيام منذ شهور  
سابقة : وقد نهضت أمها كالعادة وغادرت البيت . أما خطيبتى  
فقد وجدتتها صاحبة بعض الشيء ، وفيها غرابة . بعد ذلك أدركت  
المسألة : بدت وكأنها كانت تبكى ، من أسى عميق ألم بها .  
والحديث - الذى لم يكن أبدا يدور بيننا بكثير من الخجل -  
أصاب صوتنا بشيء من الرعب فى ذلك اليوم . مثل طيور  
المهارشة ، أو مثل طيور الحجل عندما يغنى السائر . وكلما أردت  
أن أتكلم كان كلامى يصطدم بحنجرتى . فتصبح جافة مثل جدار .  
- إذن لا تتكلمى إذا كنت لا تريدين .

- بلى . أريد !

- إذن تكلمى . هل أنا أمنعك ؟

- ياباسكوال ؟

- ماذا ؟

- هل تعرف شيئاً ؟

- كلا !

- ولا تتصوره ؟

- كلا

والآن أجدنى أضحك وأنا أأمل كيف تأخرت وقتاً طويلاً حتى

وقعت .

- باسكوال !

- ماذا ؟

- أنا حامل !

فى البداية لم أنتبه لهذه الكلمة ، وبقيت مثل المسحوق ، فقد كنت ذا طبع يأنف من الجديد : ذلك أنى لم أفكر أبدا فى أن هذا الشيء الذى كانوا يكلموننى عنه ، هذا الشيء الذى هو طبيعى جدا يمكن أن يحدث . لا أدري فى ماذا كنت أفكر .

كان الدم يغلى فى أذنى ، حتى صارتا حمراوين مثل جزوتين متقدتين : واشتدت الحرقه فى عيني وكان فيهما صابون ... ويبدو أنه قد مرت عشر دقائق على الأقل فى صمت كصمت القبور . وبدا قلبى كأنما يصعد نحو صدغى ، بضرباته المتقطعة مثل ضربات الساعة : وقد تأخرت برهة قبل أن ألاحظ ذلك .

أما تنفس لولا فقد بدا وكأنه يمر من خلال مزار .

- تقولين إنك حامل ؟

- نعم !

وأجهشت لولا بالبكاء ، أما أنا فلم أعرف كيف أواسيها .  
- لا تكونى غبية ، البعض يموتون .. وآخرون يولدون ...  
ولعل الله يخفف عني بعض العذاب فى جهنم بسبب ما أحسست به من ليونة فى ذلك المساء .

- وماذا فى هذا ؟ لقد كانت أمك كذلك قبل أن تضعك ... وأمى أيضا ...

كنت أبذل مجهودات خارقة لكى أقول شيئا . ولاحظت بعض التغيير على لولا : وبدت وكأنها انقلبت رأسا على عقب .  
- هذا هو ما يحدث دائما ، شيء معلوم ، ولا داعى لأن تضايقى نفسك !

كنت أنظر تجاه بطن لولا : ولم يكن يلاحظ عليها شيء . كانت جميلة مثلما يحدث لها فى أحيان قليلة ، بلونها المفقود .

وخصلات الشعر المنكوشة .

اقتربت منها ، وقبلتها في خدها : كانت باردة مثل الميتة . وقد تركتني أقبلها وابتسامة على فمها تشبه ابتسامة الشهيد في الأزمنة الماضية .

- هل أنت سعيدة ؟

- نعم ! سعيدة جدا !

هكذا ردت لولا دون أن تبسم .

- هل تحبني .... هكذا ؟

- نعم ، يالولا .... هكذا .

كانت هذه هي الحقيقة . فقد كنت في تلك اللحظات أحبها هكذا : فتاة ، وفي بطنها ابني : ابني أنا ، حيث كنت ، حينئذ ، أحلم بأن أربيه وأن أجعل منه رجلا يعرف من أين تؤكل الكتف .  
- سوف نتزوج يالولا : يجب أن نسوى الأوراق . هذا الموضوع لا يمكن أن يبقى هكذا .

- كلا .

وبدا صوت لولا كأنها تتنفس الصعداء .

- وأريد أن أبين لأمك أني أعرف كيف أفي بكلمتي بصفتي رجلا .

- هي تعرف ذلك ...

- بل إنها لا تعرف !

وعندما بدا لي أن أمشي كان الليل قد أرخى سدوله .

- استدع أمك .

- أمي ؟

- نعم

- لماذا ؟

- حتى أقول لها ذلك .

- إن لديها علما به

- ربما .... ولكنني أريد أن أقوله لها بنفسى !



- وقد نهضت لولا - كم هي طويلة !- ثم خرجت .
- وعندما عبرت عتبة المطبخ أعجبتني كما لم تعجبني من قبل . ثم دخلت الأم بعد برهة :
- ماذا تريد ؟
- ها أنت ترين .
- هل رأيت كيف تركتها ؟
- تركتها بخير .
- بخير ؟
- نعم ، بخير ! أم أنها ليست كبيرة ؟
- ثم صمتت الأم : وأنا لم أتصور أبدا أن أراها وديعة هكذا .
- كنت أود أن أتكلم معك .
- عن ماذا ؟
- عن ابنتك . سوف أتزوجها .
- هذا أقل شيء تفعله . هل أنت جاهز من كله ؟
- نعم أنا جاهز .
- وهل فكرت في ذلك جيدا ؟
- نعم ، فكرت جيدا .
- في هذا الوقت القليل ؟
- بل إن الوقت قد زاد .
- إذن انتظر ، سوف أناديها .
- وخرجت العجوز ، ثم تأخرت بعض الوقت حتى عادت ؛ ولعلهما كانتا تتجادلان . وعندما عادت كانت تمسك لولا من يديها .
- انظري ، إنه يريد أن يتزوجك . هل تريدين أن تتزوجي ؟
- نعم .
- حسنا ، حسنا .... بأسكوال فتى طيب ، وأنا كنت أعرف ماذا سيفعل ... هيا ، فليقبل كل منكما الآخر !
- ها قد فعلنا .

- إذن فلتكن أخرى . هيا ، أود أن أراكما .  
اقتربت من الفتاة وقبلتها : قبلتها بشدة ، بكل قوتي ،  
وضممتها إلى بقوة دون أن أهتم بحضور الأم . ومع ذلك فإن تلك  
القبلة المصرح بها لم تشدنى إلا قليلا ، أقل بكثير من القبلات  
الأولى فى القرافة اللاتي بدت بعيدة جدا .

- هل يمكن أن أبقي ؟

- نعم ، فلتبق .

- كلا ، ياباسكوال ، لا تبق : لم يحن بعد موعد بقائك .

- نعم ، يابنتى ، نعم ، فليبق . ألن يكون زوجك ؟

وهكذا بقيت وقضيت الليل معها .

وفى اليوم التالى ، فى ساعة مبكرة ، توجهت إلى الكنيسة  
ودخلت خزانة الأشياء المقدسة . كان هناك السيد مانويل يستعد  
لإقامة القداس ، هذا القداس الذى يقيمه من أجل السيد  
خيسوس ، ومولاته ، واثنين أو ثلاث أخريات من العجائز .  
وعندما رأتى أتقدم نحوه بدا مندهشا .

- وأنت هنا ؟!

- ها أنت ترى ياسيد مانويل ، جئت لأتحدث معك .

- حديثا طويلا ؟

- نعم ، ياسيدى .

- يمكن أن تنتظر حتى أنتهى من القداس ؟

- نعم ، ياسيدى ، فلست على عجلة من أمرى .

- إذن ، انتظرنى .

وقد فتح السيد مانويل باب الخزانة ، وأشار لى إلى مقعد من  
الكنيسة ، مقعد مثل كل مقاعد الكنائس ، من الخشب غير  
المدهون ، صلب ، وبارد مثل الحجارة ، لكن يمكن للمرء أن  
يقضى به لحظات طيبة فى بعض الأحيان .

- اجلس هناك . وعندما ترى السيد خيسوس يركع . اركع  
معه ؛ وعندما ترى السيد خيسوس ينهض ، انهض معه ؛ وعندما  
ترى السيد خيسوس يجلس اجلس معه أيضا .

- نعم ، ياسيدى
- وقد استمر القداس ، كالعادة ، حوالى نصف ساعة ، ولكن هذه النصف ساعة انقضت بالنسبة لى فى لحظة .
- وعندما انتهى عدت إلى الخزانة ، وهناك كان السيد مانويل يخلع هدومه .
- ماذا تريد ؟
- أنت خير العارفين ... أريد أن أتزوج .
- هذا شيء طيب . يابنى . هذا شيء طيب : من أجل هذا خلق الله الرجال والنساء ، حتى يستمر النوع الإنسانى .
- نعم ، ياسيدى .
- حسنا ، حسنا ، وممن ؟ من لولا ؟
- نعم ياسيدى
- وهل فكرت فى ذلك طويلا ؟
- كلا ، ياسيدى ، بالأمس ...
- بالأمس ، فقط ؟
- فقط . فبالأمس أخبرتنى هى بما كان
- هل كان هناك شيء ؟
- نعم .
- حامل ؟
- نعم : ياسيدى . حامل .
- إذن نعم ، يابنى : الأفضل هو أن تتزوجا . والله سوف يغفر لكما . ثم إنكما أمام الناس ، سوف تكسبان احترامهم . فمولد طفل خارج الزواج ماهو إلا خطيئة ووصمة عار . أما الإبن المولود من أبوين متزوجين على الطريقة المسيحية فهو بركة من الله . سوف أسوى لك الأوراق . هل توجد بينكما قرابة ؟
- كلا ، ياسيدى
- أفضل . عد خلال خمسة عشر يوما من الآن : وسوف تجد كل شيء معداً .

- نعم ، ياسيدى .
  - إلى أين أنت ذاهب الآن ؟
  - ها أنت ترى ، إلى العمل !
  - ألا تريد أن تعترف أولا ؟
  - نعم ...
- وقد اعترفت ، واصبحت رقيقا ولينا وكانما وضعونى فى حمام  
به ماء ساخن .



وبعد أكثر من شهر بقليل ، فى ١٢ ديسمبر ، يوم عذراء  
جوادالوبي ، الذى وافق فى ذلك العام يوم الأربعاء ، وبعد أن  
وفينا بكل متطلبات قانون الكنيسة . أعلننا زواجنا ، لولا وأنا .  
كنت أضيع مشغولا ، مهموما ، كأنما أخشى الخطوة التى  
سوف أخطوها . فالزواج أمر فى غاية الجدية ، عجباً ! - وقد  
مررت بأحذيان صعبة وخور ، حتى أنى ، وأؤكد لك ، كدت أعود  
القهقرى والخوف بكل شىء أدراج الرياح ، وهو شىء وإن لم  
أفعله فقد كان ذات سبب التفكير فى أن الفضيحة يمكن أن تكون  
كبيرة . ثم إنى . فى الحقيقة ، لم أكن سأخلص من كثير من  
الخوف . والأفضل أن أظل هادئاً ، وأترك الأحداث تمضى  
وشأنها : لعل الخراف نفكر بنفس هذه الطريقة عندما تجد نفسها  
محمولة إلى المذبح . . وعن نفسى أستطيع أن أقول إنه قد  
جاءت لحظة اعتقدت فيها أنى سوف أجن . ولا أدري هل هى  
حاسة الشم التى كانت تحذرنى من القارعة التى تنتظرنى .  
والأسوأ من ذلك هو أن هذه الحاسة نفسها لم تكن ستؤكد لى  
شيئاً من هذا القبيل لو أنى بقيت أعزب .

وبما أنى صرفت فى حفل الزواج كل ما كان لدى من مدخرات  
صغيرة - ذلك أن ثمة فرقاً بين أن تتزوج على غير الإرادة وبين  
أن تحاول أن تبقى كما بقيت - ، فقد جاء الحفل ، وإن كانت تنقصه  
العظمة ، إلا أنه على الأقل كان يشتمل على جانب من الأبهة تليق  
بمن هم على شاكلتنا . ففى الكنيسة أمرت بوضع بعض شقائق  
النعمان ، وعدد من أصص الزهور ، وصار منظر الكنيسة ممتعا  
وجذاباً ، ربما فيما يتعلق على الأقل بعدم الإحساس بالبرودة

الشديدة على خشب المقاعد وبلاطات الأرضية . كان لون ملابسها أسود ، مع ثوب من أفضل أنواع الكتان مضبوط بدقة عليها ، وخمار كله من الدنقلا أهدته لها إحدى قريباتها ، وفي يدها بعض سيقان من الأزهار ، وكانت تنقمص دورها في خفة ورشاقة ، حتى بدت مثل ملكة : أما أنا فكنت ارتدى بدلة زرقاء حسنة المنظر فيها خط أحمر ، وقد وصلت حتى بطليوس لكي أشترىها . مع قذعة ذات حافة سوداء كنت أضعها على رأسي في ذلك اليوم لأول مرة . ومنديل من الحرير كنا عروسين جميلين ، تؤكد ذلك . بسببنا ومظهرنا ! أي . كانت أوقاتنا مازالت فيها لحظات يبدو المرء خلالها وكأنه يتنسم السعادة ، لكن أي بون شاسع بيني وبينها الآن !

وقد شهد علي العهد السيد الشاب سدياستيان ، الذي يعمل مع السيد رايموند المديني . والسيد رورورا ، أخت السيد مانويل القسيس الذي طرح علينا البركة . وصلاة قصيرة في النهاية ، وبذلك تضاعف وقت السفر ثلاث ساعات ، ولكنني تحملت كل هذا لا لشيء - والله أعلم بالصواب - إلا لأنني اعتقدت أن ذلك واجب : لكنه كان ثقيلًا إلى أقصى حد . وقد حدثنا مرة أخرى عن خلود النوع الإنساني . وحدثنا أيضا عن البابا ليون الثالث عشر ، وقال لنا أشياء عن القديس بولس والعبيد . . . واضح أن الرجل حضر وقد أعد الخطبة إعدادًا جيدًا !

وعندما انتهى دور الكنيسة - وهو شيء لم أتصور أبدا أنه سوف يحدث - وصلنا جميعًا ، وكاننا في لجنة ، إلى بيتي ، حيث كنا قد عملنا استعداداتنا ، بأفضل ما يملك الناس من إرادة في هذا العالم ، للأكل والشرب ، لكل من حضروا ولضعفهم إن زاد عدد المدعوين ، وإن يكن ذلك قد تم بكل الراحة المطلوبة . فبالنسبة للنساء كانت هناك شيكولاتة مع لقمة القاضي ، وتورته من اللوز ، وبسكويت ، وخبز من التين ، وبالنسبة للرجال كان هناك نبيذ أبيض وسجق من لحم الخنزير ، وممبار ، وزيتون ، وعلب سردين . . . وأنا أعرف أن بعض الناس في القرية انتقدوني

لأنى لم أقدم طعاما على الغداء : يروحوا فى داهية . لكن الذى أستطيع أنؤكدك هو أن تلبية رغبة هؤلاء الناس لم تكن ستكلفنى ما لا أطيقه . ولكنى ، مع هذا فضلت ألا أفعل ذلك ، لأنى كنت سبألا مربوطا معهم لأطول مدة ، بينما كنت أحس برغبة قوية فى الذهاب مع زوجتى . وإن ضميرى مستريح تماما لأنى أدبت واجبى - وبشكل جيد - وهذا يكفينى : أما فيما يتعلق بالهمسات .. فمن الأفضل ألا نلقى لها بالاً !

وبعد أن قدمت التحية للضيوف ، وبمجرد أن حانت لى الفرصة ، أخذت زوجتى ، وأجلستها على كفل الفرسة ، التى أسرجتها برجل السيد بيثينتى ، وكان قد أعارنى إياه لهذا الغرض ، وخطوة خطوة ، وكانى كنت أخشى أن أراها منكفئة على الأرض ، سلكت الطريق واقتربت من مدينة ماردة ، حيث قضينا هناك ثلاثة أيام لعلها أكثر الأيام سعادة فى حياتى . وفى الطريق توقفتنا ست مرات تقريبا كي نأخذ حظا من الانتعاش ، والآن أتذكر بدهشة بل أتردد كثيرا عندما أتوقف لأفكر فى تلك اللحظات الخاطفة عندما عن لنا نحن الاثنين أن نقطف بعض زهور الأقحوان لى يضعها كل منا للآخر ، على الرأس . إن المتروحين حديثا يبدون وكأنما قد عاد لهم فجأة كل سحر الطفولة

وعندما رحلنا المدينة ، فى مشية موقعة ومنتظمة ، وعبرنا الجسر الرومانى ، لاح لنا فال سيىء حين أصيبت الفرسة بالفزع - ومن يدري فربما كان ذلك من رؤيتها للنهر - ، وكان ثمة امرأة عجوز بائسة تمر من هناك كان من نصيبها رفسة تركتها نصف جريحة . وعلى وشك أن تتدحرج برأسها فى نهر وادى يانة . وقد ترجلت بسرعة كي أنقذها ، لأنك لا يمكن أن تكون من أرومة طيبة إذا لم تسارع إلى غوث الملهوف ، ولكن بما أن العجوز أعطتنى إحساسا بأن ما كان عندها هو مجرد رائحة كريهة ، فقد نفحتها ريبالا - لماذا لا أقول ذلك - وربت مرتين على كتفها ثم ذهبت لأنضم إلى لولا . وكانت هذه ، أى لولا ، تضحك

وضحكته ، وينبغي أن تصدقنى ، سببت لى الكثير من الألم : ولا أدرى هل كان ذلك هاجسا ، أو شيئا هكذا يشبه الشعور الداخلى بما سوف يحدث لها . ليس من حسن الخلق أن نضحك على مصائب الآخرين ، قال ذلك إنسان كان سيىء الحظ على امتداد حياته : إن الله يعاقب من غير عصا ومن غير حجارة ، والمثل معروف ، من يقتل بالحديد ... ومن جهة أخرى ، وإن لم يكن من أجل هذا ، فإن الكائن البشرى لم يكن أبدا شيئا غير ذلك .

وقد نزلنا فى خان الميرلو ، فى حجرة كبيرة بالمدخل ، على اليمين ، وخلال اليومين الأولين ، ونحن فى حالة من الهيام على نحو ما كنا ، لم ننزل إلى الشارع ولا مرة واحدة . كنا مستريحين فى الحجرة : فقد كانت واسعة ، ذات سقف مرتفع ، مسنود بروافد صلبة من خشب القسطل ، وبها أرضية نظيفة من البلاط ، وأثاث مريح ومتعدد كان المرء يحس بمتعة حقيقية وهو يستخدمه . إن ذكرى هذه الغرفة ظلت تصحبنى على امتداد حياتى مثل صديق وفى ، والسريير هو أفضل سرير رأيته فى حياتى ، ورأسه كلها من شجر الجوز المشغول ، وعليه أربع مراتب من الصوف النظيف ... كم كنت أستريح فيه جيدا ! كان يبدو وكأنه سرير الملك نفسه ! كان هناك أيضا صوان ، طويل وعريض مثل قابلة ، له أربعة أدراج عميقة ، بها مقابض مذهبة ، ودولاب يصل إلى السقف ، به مرآة كبيرة من أفضل المرايات ، وزوج من الشمعدان الطويل - من نفس الخشب - كل منها فى جانب حتى يضئ الصورة جيدا . بل إن إبريق الغسيل - الذى عادة يكون أسوأ شئ - كان جميل المنظر فى تلك الحجرة : ذلك أن أرجله المقووسة الرقيقة من الخيزران ، وجفینته المصنوعة من الفخار الأبيض ، والعصافير الصغيرة المنقوشة على حافته ، كل هذا كان يضيف عليه نوعا من الملاحظة تجعله محببا . وعلى الجدران كانت هناك صورة ملونة ، كبيرة ، وبها أربعة ألوان ، فوق السريير ، تمثل المسيح فى استشهاده : وكان بالحجرة دف عليه رسم بالألوان يمثل صورة الخير الدا الإشبيلية ، له إطار من



ثمرة القطلب مجسد وأصفر اللون ، وزوجان من الصناجات في كلا الجانبين ، وعليه رسم للسيرك الرومانى ، وقد وصفته دائما بأنه ذو قيمة كبيرة نظرا للتشابه الكبير الذى كنت أجده فيه . وكان هناك أيضا ساعة موضوعة فوق الصوان ، مع دائرة صغيرة تصور الكرة الأرضية ، يحملها على الأعناق تمثال لرجل عار ، وجرتان من جرار تالافيرا ، عليهما رسوم باللون الأزرق ، قديمتان بعض الشيء لكنهما مازالتا تحتفظان حتى الآن بهذا البريق الذى يجعل منهما شيئا يسر النظر . أما المقاعد ، حوالى ستة اثنان منها لها أذرع ، فكانت طويلة من الظهر ، منجدة بأشياء لينة تريح العجز ( معذرة ) : صلبة الأرجل ، ومريحة جدا لدرجة أنى ازددت شوقا إليها عندما عدت إلى البيت ، فما بالك بهذه اللحظة وأنا محبوس هنا . وحتى الآن مازلت أتذكرها بالرغم من مرور السنوات !

وقد قضيت أنا وزوجتى الساعات مستمتعين بالراحة التى أتاحت لنا ، وكما قلت لك ، فى البداية ، إننا لم نكن نخرج إلى الشارع . فماذا كان يهمنا ما يحدث فيه إذا كنا هنا فى الداخل نمتلك ما لا يمكن أن يقدمه لما أحد فى كل أنحاء المدينة . لكن أسوأ شيء هو الحظ السيئ ، صدقنى . إن سعادة هذين اليومين بدت لى غريبة . لأنها كانت تبدو سعادة كاملة . ففى اليوم الثالث ، السبت ، علمنا أن أقرباء العجوز التى أصابتها الفرسة تقدموا ببلاغ للحرس المدنى . ولم نشعر إلا وشرذمة من الحسبيان جاءوا يطرقون الباب بقوة عندما عرفوا أن رجال الحرس المدنى قادمين ، وقد أحدثوا جلبة شديدة ظلت بعد ذلك شهرا كاملا تطن فى أذنيننا . أية قسوة ملعونة تبعثها رائحة المقبوض عليهم فى الأطفال ؟ أخذوا ينظرون إلينا بعيونهم الملتهبة وكأننا دابتان غريبتان ، وعلى شفاههم ابتسامات مأكرة ، وكأنهم ينظرون إلى نعجة يضحون بها فى المذبح - هذه النعجة التى تبتل النعال من دمها الساخن - أو كأنهم ينظرون

إلى كلب داست عليه عربة مارة - هذا الكلب الذى يجسونه بعصاة ليروا هل مازالت فيه حياة - ، أو كأنهم ينظرون إلى خمس قطط حديثة الولادة تغرق فى حوض ، هذه القطط الخمس التى يقذفونها بالحجارة ، هذه القطط الخمس التى يستخرجونها من وقت لآخر كي يلعبوا بها ، ولكي يطيلوا لها أمد الحياة قليلا - أى حب سيء هذا ! - ، ولكي يحولوا دون أن تكون معاناتها سريعة جدا .. فى البداية ضايقتنى كثيرا وصول رجال الحرس المدنى ، وبالرغم من أنى كنت أبذل جهودا كي أبدو رابط الجأش ، إلا أن الارتباك الذى حدث لى فى تلك اللحظة لم يسمح لى بإظهار ذلك . وكان يصحب رجال الحرس المدنى شاب عمره حوالى خمسة وعشرين عاما ، حفيد العجوز ، نحيل ومعجب بنفسه شلما يحدث فى هذه السن عادة ، وكانت هذه هى نقطة إنقاذى . ذلك لأنه لا ينفع مع الناس ، كما تعرف ، إلا أن تستخدم الكلمة و"تشخّش" الجيب ، فما إن ناديته بـ "باشتى" ووسعت فى يده ست بيزيتات حتى انطلق مثل الشرارة بادی السماء مثل الصناجات ، وهو يدعو الله - وأنا متأكد من ذلك - أن يرى فى حياته ، مرات كثيرة ، جدته ساقطة بين أرجل الأفراس . أما رجل الحرس المدنى ، الذى أدرك أن الطرف الذى يهمه الأمر امتكّم إلى العقل ، فقد مرر إصبعه على شاربته ، وتنحنح ، وحدثنى عن خطورة النهماز ، لكن الأساس فى كل هذا هو أنه انسحب دون أن يزعجنى أكثر من ذلك .

أما لولا فكانت تبدو منهكة من الرعب الذى سببته لها هذه الزيارة . ولكن بما أنها فى الحقيقة لم تكن امرأة جبانة ، وإن كانت تفرّج بسرعة . فقد زایلها الكدر فى غضون لحظات قليلة ، ثم عاد الذّون إلى خديّها ، والبريق إلى نظرتها ، والابتسامة إلى شفتيها ، حتى صارت فى الحال فى غاية من الجمال وحسن المنظر كما هى دائما .

فى تلك اللحظة - وأنا أتذكرها جيدا - لاحظت لأول مرة شيئا غريباً فى بطنها ، ولم أنبث عندما رأيته هكذا أن أحسست بضيق

فى قلبى ، وإن كان هذا الإحساس - وسط كل هذا الضيق - قد أدى إلى تهدئة ضميرى ، ذلك لأننى كنت مشغولا جدا فى ذلك الحين لأننى لم أحس به ، أى بضميرى ، يخفق إزاء فكرة الابن الأول . ولم يكن يظهر عليها من أعراض الحمل إلا القليل ، لدرجة أننى لو لم يكن لدى علم بذلك ، ما كنت قد توصلت أبدا إلى إدراك هذه المسألة .

وقد ابتعنا من ماردة بعض الأشياء من أجل البيت ، ولكن بما أن النقود التى كنا نحملها لم تكن كثيرة ، ثم إنها نقصت كثيرا بالست بيزيتات التى أعطيتها لحفيد العجوز ، فقد قررت أن نعود إلى القرية لأنه لم يبد لي من شيم الرجال الحذرين أن يستنفدوا كل مالديهم من نقود حتى آخر مليم . عدت أسرج الفرسه ، وأعدتها للركوب بوضع البرذعة والركاب اللذين أخذتهما من السيد بيثينتى . وآلف اللحاف على الجزء الأمامى ، حتى نعود - وزوجتى على الكفل مثلما جئنا - من طريق توري ميخيا . وبما أن بيتى كان ، كما تعرف ، فى طريق المندراليخو ، وبما أننا كنا قادمين من ماردة ، اضطررنا ، لكي نقرب من هذا الطريق ، أن نعبر صفا كاملا من البيوت ، بصورة جعلت كل الجيران ، لأننا كنا فى لحظة الغروب ، يروننا ونحن قادمان - فى فخار - ويظهرون لنا حبههم . الذى كان موجودا فى ذلك الحين ، ويستقبلوننا استقبالا طيبا . وقد تنحيت جانبا ، مطوحا برأسى حتى لا تجرح لولا من ركلة ، حيث تكأأ على زملاء العزوبة والعمل ، فذهبت معهم ، شبه محمول على الأعناق ، حتى حانة مارتينيت الديك ، حيث دخلنا فى صخب نغنى ، وحيث استقبلنى صاحب الحانة بالأحضان حتى أحسست بعد قليل ، بالدوار من القوة التى أخذنى بها ورائحة النبيذ الأبيض التى كانت تخرج من فيه . أما لولا فقد قبلتها على خدها وأرسلتها إلى البيت حتى تحيى الصديقات وتنتظرنى ، ومن ثم مشيت ، مثل فارسة على الفرسة الجميلة ، فارعة الطول وشامخة مثل أميرة ، وليس لديها أى علم بأن الحيوان سوف يكون سبب أول مصيبة .

وبما أن الحانة كان بها جيتار ، وكثير من النبيذ ، ومزاج طيب كاف ، فقد صرنا جميعا متألقين وفرحين ، وأسلمنا أنفسنا إلى ما نحن فيه ، غير عابئين بما يدور في الخارج ، وهكذا مر علينا الوقت دون أن نحس به ونحن بين الغناء والشراب . أما زكريا ، الذى يعمل مع السيد خوليان ، فقد انطلقت عقيرته بالغناء . وكان من الممتع جدا أن تسمعه بصوته الرقيق جدا مثل صوت الكنارى . وبينما هو يغنى كان الآخرون - فى حالة الهدوء - يلتزمون الصمت وهم يستمعون مذهولين ، ولكن عندما كنا ننطلق فى الصخب ، بسبب النبيذ والحوار الدائر ، فقد كنا نغنى فى جماعة ، وبالرغم من أن أصواتنا لم تكن تحمل كثيرا من الرقة ، لكن بما أننا كنا نقول أشياء مسلية ، فقد صار كل شيء مُغتفرا لنا .

إنه لأمر يثير الأسى أن لحظات السعادة عند الناس لا يُعرف أبدا إلى أين سوف تمضى بنا ، ولو أننا عرفنا ذلك فلاشك أننا سوف نعرف كيف نتجنب هذه المصيبة أو تلك : أقول ذلك لأن السهرة فى بيت الديك انتهت مثل مسبحة الفجر بشيء لا يعرف أى منا كيف يوقفه فى وقته . كانت المسالة سهلة جدا ، سهلة كما تكون دائما كل الأشياء التى تاتى مع ذلك لكى تعكر علينا صفو الحياة .

فالسماك يموت من الفم ، هكذا يقولون ، ويقولون أيضا إن من يتكلم كثيرا يغلط كثيرا ، وأن الفم المقفول لا يدخله الذباب ، وإذا كنت أنا أعتقد فى مثل هذه الأمثال فلا بد أن فيها ما يستوجب هذا الاعتقاد ، لأن زكريا لو كان قد ظل صامتا كما أمر الله ، ولم يحشر نفسه فى شئون الغير عندئذ كنا سنتجنب كارثة صغيرة ، أدت إلى استنفار الجيران بما أصابه من جروح ثلاثة . إن النبيذ ليس أبدا مما ينصح به .

فزكريا ، فى وسط اللهو ولكى يظهر بمظهر العارف بالنكات ، حكى لنا حكاية عما حدث ، أو ألم ، بشخص حرامى ، وقد كانت



لدى الجرأة على أن أقسم فى تلك اللحظة - ومازلت أقسم حتى الآن - أنه كان يقصدنى بهذا الكلام : وأنا لم أكن أبدا حساسا ، هذا صحيح ، ولكن هناك أشياء مباشرة - أو يعتقد المرء أنها مباشرة - ولا يمكن أبدا أن تؤخذ على أنها بعيدة عن التلميح ، أو يستمر الإنسان فيما هو فيه ولا ينهض متأثرا .  
وقد لفت انتباهه قائلا :

- أنا لا أجد فيها ما يسلى ، أليس كذلك !  
- ولكن الجميع رأوا فيها ذلك ياباسكوال .  
- فليكن ، لا أرفض ذلك ، ولكن ما أقوله هو أنه ليس من حسن الأدب أن نضدك البعض على حساب الآخرين .  
- لا تهمز ، ياباسكوال : فأنت تعرف من هو أحق بالهمز ...  
- وأنا أيضا لا أرى من شيم الرجال أن يخرج المرء بنكات تشبه الإهانات .

- اتقصدنى بذلك ...  
- كلا : أقصد حاكم المدينة .  
- إنك قليل الشأن بالنظر إلى ما يصدر عنك من تهديدات .  
- ولكنى أنفذ .  
- أنت تنفذ ؟  
- نعم !

ثم نهضت واقفا .  
- أتريد أن نخرج إلى الحقول ؟  
- ليس بلأزم !  
- تتصور أنك شجاع !

وقد انتحى الأصدقاء جانبا ، لأنه ليس من شيم الرجال أن يحشر المرء نفسه ليمنع اللكمات .

ثم فتحت المطواة فى رصانة : وفى هذه اللحظات كان أى اندفاع ، أو أى خطأ يمكن أن يتمخض عن نتائج مشئومة . وقد

ران صمت عميق لدرجة أن المرء كان يمكنه سماع طيران الذبابة .  
تقدمت نحوه ، وقبل أن أعطيه الفرصة ليعتدل ، طعنته  
بالمطواة ثلاث طعنات خراً بعدها صريعا . وعندما حملوه  
متوجهين إلى صيدلية السيد رايموند ، كان الدم يتدفق منه مثل  
ينبوع ...

توجهت إلى المنزل في صحبة ثلاثة أو أربعة من أصدقائي الحميمين ، وأنا شاعر ببعض الضيق لما حدث منذ قليل .  
- أيضا كان الحظ سيئا ... بعد ثلاثة أيام فقط من الزواج .  
كنا نمشي صامتين ، والرأس منكسة ، كحال النادمين .  
- هو الذي جلب ذلك لنفسه : أنا ضميري مرتاح جدا . لو أنه لم يتكلم !

- لا تقلب الموضوع على وجوهه ، ياباسكوال .  
- يارجل ، لأنى أحس بالأسى ، ها أنت ترى ! بعد أن لم يعد يجدى الأسى !

كنا في ساعة الفجر ، والديوك تطلق أولى صيحاتها في الفضاء . والحقول تفوح منها رائحة الأزهار والزعر .  
- فى أى مكان طعنته ؟

- فى أحد كتفيه .

- طعنات كثيرة ؟

- ثلاث

- هل سيبراً ؟

- نعم ، يارجل ! أعتقد أنه سيبراً !

- هذا أفضل .

ولم يحدث أبدا أن بدا لى بيتى بعيدا جدا مثلما حدث فى تلك الليلة .

- الجو برد ...

- لا أدرى ، ولا أشعر به .

- إذن فهو الجسد !
- ربما ...
- ومررنا على القرافة .
- أى سوء يفرض على المرء أن يكون هنا فى الداخل !
- يارجل ! لماذا تقول هذا ؟ وأية أفكار غريبة تتركب رأسك !
- ها أنت ترى !
- كانت شجرة السرو تبدو مثل شبح طويل وجاف ، وكأنها حارس الأموات .
- قبيحة شجرة السرو ...
- قبيحة .
- وكان على شجرة السرو بومة ، طائر ذو فال سيىء . يسمعنا صغيره المحاط بالأسرار .
- طائر سيىء هذا .

- سيىء ...
- وهو فى كل الليالى موجود هنا .
- كل الليالى ...
- يبدو أنه يستمتع بمصاحبة الأموات .
- يبدو ...
- ماذا دهاك ؟
- لا شىء ! ليس عندى شىء ! كما ترى ، مجرد عادة ... نظرت إلى دومينجو : كان شاحبا مثل شخص يحتضر .
- هل أنت مريض ؟
- كلا ...
- خائف ؟
- أنا أخاف ؟ وممن أخاف ؟
- لا أحد ، يارجل ، لا أحد : مجرد كلام .
- وتدخل السيد الشاب سيباستيان :



- هيا ، كفوا عن الكلام : نريد أن نغذ السير حتى نصل  
بسرعة .

- كلا ...

- هل بقيت مسافة كبيرة ، ياباسكوال ؟

- قليل : لماذا ؟

- لا شيء ...

كان البيت يبدو وكأنما قد نقل بواسطة يد سحرية ، مضت به  
المرة تلو المرة إلى بعيد جدا .

- هل تجاوزنا المكان ؟

- كلا ، يارجل ! لو كان كذلك لعثرنا على ضوء ما . فلنعد  
للصمت . ولم يبق إلا القليل .

- هل هو ذاك ؟

- نعم

- ولماذا لم تقل ذلك من قبل ؟

- ولماذا ؟ ألم تكن تعرف ؟

والحق أنى دهشت للصمت الذى كان يخيم على بيتى .  
فالمفروض أن النسوة مازلن هناك وفقا للعادة ، والنساء ، كما  
تعرف سيادتك ، أكثر شيء يرفعنه هو الصوت عند الكلام .  
- يبدو أذهن نائمات .

- لا أعتقد ! فهناك ضوء !

اقتربنا من البيت : وبالفعل كان هناك ضوء .

كانت السيدة إنجراثيا عند الباب ، تتحدث بالسين مثل بومة  
السرو : ولعل وجهها كان هو أيضا مثل وجه البومة .

- سيادتك هنا ؟

- ها أنت ترى يابنى ، كنت أنتظرك .

- تنتظريننى ؟

- نعم

لكن اللهجة التى كانت تحمل سرا والتى استخدمتها معنى

- السيدة إنجراثيا لم ترق لى .
- اتركينى ادخل !
  - لا تدخل !
  - لماذا ؟
  - هكذا !
  - إنه بيتى !
  - انا أعرف يابنى : بيتك منذ سنوات طويلة ... لكنك لا تستطيع أن تدخل .
  - ولكن لماذا لا أستطيع أن ادخل ؟
  - لأنه لا يمكن يابنى . فزوجتك فى حالة سيئة !
  - سيئة ؟
  - نعم .
  - ماذا حدث لها ؟
  - لا شيء : لقد أجهضت .
  - نعم : طرحتها الفرسة أرضا ...
  - إن الحق الذى تغفل فى داخلى لم يجعلنى أرى الأشياء بوضوح : فقد أصيب قلبى بالعمى حتى أنى لم أدرك ما كنت أسمعه .
  - أين هى الفرسة ؟
  - فى الاسطبل .
  - كان باب الاسطبل الذى يؤدى إلى الحوش واطىء العتبة .
  - فلنحيت لى ادخل : لم يكن يرى أى شيء .
  - أنت ، يافرسة !
  - اقتربت الفرسة من المذود : وأنا فتحت المطواة بعنلية : وفى تلك اللحظات لو حدث أن زلت الرجل لأدى ذلك إلى نتائج مشئومة .
  - أنت ، يافرسة !

وعاد الديك يصيح فى الصباح .  
- أنت ، يافرسة !

تحركت الفرسة نحو الركن . اقتربت منها : ووصلت حتى  
استطعت أن أوجه لها ضربة على وركها . كانت الدابة متيقظة .  
وعنيدة .

- أنت ، يافرسة .

لم يستغرق ذلك إلا لحظة . فقد بركت فوقها ، وطعننها :  
طعننها عشرين طعنة على الأقل ...

كان جلدها صلبا : أصلب بكثير من جلد زكريا ... وعندما  
خرجت من هناك كان ذراعى يؤلمنى ، وقد وصل الدم حتى مفصل  
الكوع . أما الدابة فلم تتكلم ولم تتن : واقتصرت على أن تتنفس  
بعمق ، وبسرعة ، مثلما كانوا يطلقونها للذكر .

من المؤكد أن أقول لك إننى فى تلك اللحظة - وإن كنت بعد هذا ، عندما هدأت ، فكرت عكس ذلك - لم يطرق خيالى إلا شيء واحد عبارة عن فكرة تقول إن اجهاض لولا كان يمكن أن يحدث لها قبل أن نتزوج ، ولو حدث ذلك فكم كان سيوفر على من مشاعر الألم والحفيظة والتسمم !

فقد ترتب على ذلك الحادث المؤلم أن صرت هالكا وغارقا فى خيالات سوداء ، ولم يحدث رد فعل لى إلا بعد مرور مالا يقل عن اثنى عشر شهرا طوالا . كنت أهيى خلالها فى انحاء القرية شارد اللب ، وبعد عام أو أقل قليلا من ضياع ما كان سياتى ، أصبحت لولا حاملا من جديد ، واستطعت أن أرى بسعادة كيف صارت تغمرنى الأشواق ، ويغزوني القلق على الندو الذى حدث لى فى المرة الأولى : كان الوقت يمر ببطء شديد بينما كنت أود لو يمضى بأسرع ما يكون وكان هناك مزاج شيطانى يصحبنى مثل ظلى فى أى مكان ذهبت إليه .

أصبحت نفورا فظا . مفرط الخوف متجهما ، وبما أنه لا زوجتى ولا أمى كانتا تفهمان كثيرا فى مسألة الأمزجة ، فقد غدونا جميعا فى حالة استنفار دائمة نترقب من أين تخرج المشاجرة . كان هذا الاضطراب يمزقنا ، لكنه يبدو وكأنما نمارسه باستمتاع . كان كل شيء يبدو لنا حامل اشارات ، وكل شيء ينطوى على نية سيئة ، وكل شيء له هدف آخر . كانت شهورا فيها من الأختناق مالا يمكن لك أن تتصوره .



أما مجرد التفكير فى أن زوجتى يمكن أن تجهض مرة أخرى فهو أمر كان يجعلنى أخرج عن طورى ، كان الاصدقاء يلاحظون أنى أصبحت غريبا ، وكانت الكلبة تشيبا - وهى على قيد الحياة حتى تلك اللحظة - تبدو وكأنها تنظر إلى بميل أقل من ذى قبل . وكنت أحدثها ، كالعادة .

- ماذا لديك ؟

وهى تنظر إلى وكأنها تتوسل ، محركة ذيلها بسرعة جدا ، فى شبه أنين ، وعيناها مركبتان على فى وضع يمزق نياط القلب . فهى أيضا قد أجهضت ، مات لها ثلاثة أبناء فى بطنها ، وفى براءتها ، من يدري هل لديها علم بهذا الاسى الكبير الذى أحدثته لى مصيبتها هذه ! كانوا ثلاثة كلاب صغيرة لم يولدوا أحياء ، الثلاثة متساوون ، والثلاثة فيهم لزوجة مثل لزوجة الشراب ، والثلاثة لو أنهم رمادى ونصف أجرب مثل الفئران ، وقد حفرت حفرة فى أحد الأركان ووضعتهم فيها وعندما ذهبنا إلى الحبل خلف الأرنب توقفنا برهة نلتقط الأنفاس ، كانت هى ، بهذا المزاج المؤلم لأنثى فقدت أبناءها ، تقترب نحو الحفرة كى تشمها .

وعندما حل الشهر الثامن كانت الاشياء تسير وكأنها فوق قضبان . وعندما بدا أن حمل زوجتى ، بفضل نصائح السيدة إنجراثيا ، قد أصبح نموذجا طيبا للحمل ، وعندما صار كل شىء بعد أن انصرم وقت طويل ولم يبق إلا القليل ، يدعونا إلى الاعتقاد بأنه لم يعد مجال للحذر والحيطه الشديدة ، داخلتنى هواجس الاشوائى وركبتنى دوافع العجلة ، حتى أنى فى تلك الأيام كنت متأكدا إنى لن أصاب بالجنون فى الحياة إذا خرجت بعقلى سليما من تلك الورطة .

وفى الأيام التى حددتها السيدة إنجراثيا ، وكأن لولا كانت ساعة ، محددة مواعيدها بدقة ، جاء إلى العالم ، ابنى الجديد أو

بالأحرى ابنى الأول ، بكثير من البساطة والسهولة حتى أنى كنت مندهشا ، وقد وضعنا له مع شمعة التعميد اسم باسكوال ، مثل ابيه ، خادمك ، وأنا كنت أريد أن أسميه ادوارد لأنه ولد فى يوم هذا القديس . وهذه هى العادة عندنا ، ولكن زوجتى ، التى كانت فى ذلك الحين شديدة الود لى أصرت على أن نطلق عليه الاسم الذى أحمله ، وهو أمر اقتنعت به بعد فترة وجيزة نظرا للأمل الكبير الذى كان يحدونى ، كل هذا يبدو لى الآن أكذوبة ، ولكنىؤكد لك أنه مربي . وتصور فى ذلك الحين الأمل الذى يمكن أن يغمرك لقدم طفل ينتعل حذاء جديدا ويؤجج مشاعر الود عند زوجتك تجاهك . كنت أشكر لهما ذلك من كل قلبى ، أقسم لك بهذا . أما هى ، فنظرا لطبيعتها القوية الصارمة ، فقد بدت جديدة بعد يومين فقط من الولادة ، وكان لم يحدث شيء ، والصورة التى كانت عليها ، شعناء تماما وهى ترضع الطفل ، كانت من أكثر الأشياء التى أثرت فى على عداد حياتى . فهذا المنظر وحده كان يعوضنى ويفيض عن المئات من اللحظات السيئة الماضية . كنت أقضى ساعات طويلة جالسا عند أرجل السرير وكانت لولا تقول لى بصوت خفيض جدا . فيه خفر .

- لقد أعطيتك ابنا .

- نعم ..

- فيه ملاحه .

- شكرا لله .

- والآن ينبغى أن تحافظ عليه .

- من الخنازير .

وقد قفرت ذكرى أخى المسكين ماريو الى ذهنى ، فلو أنه كان لى ابن بنفس مأساة ماريو ، لخنقته حتى أخلصه من المعاناة .

- نعم ، من الخنازير .

- ومن نوبات الحمى أيضا .
- نعم .
- ومن ضربات الشمس ..
- نعم .. أيضا من ضربات الشمس .
- وكان التفكير فى أن تلك القطعة اللينة من اللحم التى هى ابنى ، يمكن أن تكون معرضة لكل هذه الاخطار ، يجعلنى فى مثل لحم الدجاجة .
- سوف نقوم بتطعيمه .
- عندما يكبر قليلا .
- وسوف نلبسه حذاء دائما ، حتى لا تقصر رجلاه .
- وعندما يبلغ من العمر سبع سنوات سوف نرسله الى المدرسة .
- وأنا سوف أعلمه الصيد البرى .
- كانت لولا تضحك ، انها سعيدة ! وأنا أيضا كنت أحس بالسعادة لماذا لا نقول ذلك ؟ ، عندما أنظر اليها ، بجمالها المنقطع النظير ، وابنها على ذراعها مثل القديسة مريم .
- سوف نجعل منه رجلا يعرف من أين تؤكل الكتف !
- ولم نكن نفكر أبدا نحن الاثنين أن الله - الذى ينظم كل شيء لكى تمضى الأكوان فى مسارها السليم - سوف يأخذ منا ! إنه أملنا ، جماع الخير بالنسبة لنا ، وثروتنا الكاملة ، ذلك الابن الذى سوف نفقده رغم أننا قبل أن نجرب كيف نوجهه ، يا لأسرار العواطف ، تذهب عنا عندما نكون فى أشد الحاجة اليها !
- كانت المتعة التى أحس بها وأنا أتأمل الطفل تتحول إلى وخزات شوكة شديدة السوء ، دون أن أعثر على سبب يبرر ذلك .
- فدائما كانت عيني مفتوحة جيدا على المصائب .
- ولا أدرى هل لحسن الحظ أم لسوء الحظ - وهذا الاحساس الداخلى ، مثل كل المرات ، أخذ يتأكد لى عندما مرت بعض

الشهور وكأنه يزيد من تعاستي ، هذه التعاسة التي كان يبدو أنها لن تتوقف أبدا عن الدوران حولي . وظلت زوجتي تحدثني عن الابن .

- إنه يكبر بصورة طيبة .. ويبدو مثل لفة من الزبدة . وهذا الكلام المتواصل عن الطفل أصبح شيئا فشيئا بالنسبة لي أمرا كريها ، كان لابد أن يغادرنا ، وأن يتركنا غارقين في أشد حالات الاحباط ، وأن يخلينا مثل تلك المزارع المهملة التي تستولي عليها نباتات النار والعليق ، والصفاد والعطاءات ، وأنا كنت أعرف ذلك ، كنت متأكدا منه ، وشاعرا بقدوم النكبة ، كنت على يقين أن ذلك لابد أن يحدث إن عاجلا أو آجلا ، ولأنني لم أكن استطيع أن أقف ضد ما يوحى لي به احساسى فقد أدى هذا إلى أن صارت قريحتي في حالة اضطراب شديدة .

وفي بعض الأحيان كنت أظل أنظر ، مثل برىء ، إلى باسكوال الصغير ، وأجد عيني بعد لحظات قليلة متفرقة بالدموع ، كنت أخاطبه .

- باسكوال ، يابنى .

وكان هو يبتسم لي بعينيه المدورتين ، ويبتسم . وتعود زوجتي لتتدخل .

- ياباسكوال ، إن طفلنا يكبر بصورة طيبة

- حسنا ، يالولا ، نتمنى أن يظل هكذا

- لماذا تقول ذلك ؟

- ها أنت ترين . الاطفال ضعاف جدا !

- لاتكن سييء التفكير ، يارجل !

- كلا ، لست سييء التفكير ، كلا .. ينبغي أن نعتنى به كثيرا !

- كثيرا !

- ونتجنب اصابته بالبرد .

- نعم .. فيمكن أن يؤدي هذا إلى موته



- الاطفال يموتون من البرد .  
- من أية نسمة هواء سيئة !  
أخذت المحادثة تموت شيئاً فشيئاً ، مثل العصافير أو مثل  
الأزهار ، وبنفس العذوبة ، والبطء التي يموت بها ، شيئاً فشيئاً  
أيضاً ، الأطفال ، الاطفال الذين يتخللهم أى هواء خائن غير  
عليل

- أنا أحس بالفرع ، ياباسكوال .  
- من ماذا ؟  
- ترى لو أنه ذهب منا !  
- يا امرأة .  
- إن الاطفال جسمهم هش جداً فى هذه السن !  
- إن ابننا فى حالة طيبة جداً ، بجسمه الوردى وابتسامته  
التي تنطبع على الفم دائماً .

- هذا صحيح ، ياباسكوال ، انى لعبطة !  
كانت تضحك ، بعصبية واضحة ، وهى تضم الطفل إلى  
صدرها .

- اسمع !  
- ماذا !  
- من ماذا توفى ابن كارمن ؟  
- ماشأناك بهذا ؟  
- لمجرد المعرفة .. يارجل ؟  
- يقال انه مات من داء يصيب الطيور  
- لعله هواء سيئ ؟  
- يبدو ذلك .  
- مسكينة كارمن ، كم كانت سعيدة بابنها ! كانت تقول إنه  
يشبه وجه أبيه ، هل تذكر ذلك ؟

- نعم أذكره .
- يبدو أن الانسان عندما يضع كل أمله فى شىء فإنه لا يلبث أن يفقده .
- نعم
- ينبغي أن نعرف كم من الوقت سيستغرقه كل ابن وليكن ذلك مكتوبا على الجبهة .
- صه !
- لماذا ؟
- لا أستطيع أن أسمع .
- إن خبطة فأس فى الرأس فى تلك اللحظة لم تكن لقد علمنى أكثر انسحاقا بأكثر مما فعلته كلمات لولا .
- هل سمعت ؟
- ماذا !
- النافذة .
- النافذة ؟
- نعم ، تصر وكأنما يريد أن يتخللها بعض الهواء وقد اختلط صرير النافذة ، والهواء يرجها ، بصوت أنين
- هل نام الطفل ؟
- نعم .
- يبدو أنه يحلم .
- لا أسمعه .
- وأنه يأسى وكأن به بعض السوء .
- أو هام !
- الله يسمع منك ! هل تتركينى ألقى عليه نظرة . فى المضجع ، كان أنين الطفل يشبه نحيب أشجار البلوط عندما تمر بها الريح .

ذهبت لولا لترى ماذا يحدث له ، وأنا بقيت في المطبخ ادخن  
سيجارة ، هذه السيجارة التي يأخذونها منى دائما وأنا ادخن في  
لحظات الضيق .

.....

لم يستمر إلا أياما قليلة . وعندما أعدناه إلى الأرض ، لم يكن  
عنده إلا أحد عشر شهرا ، أحد عشر شهرا من الحياة ، ومن كل  
أصناف العناية ، ألقى بها على الأرض بعض هواء خائن سييء .

من يدري هل كان الله هو الذى يعاقبني على الخطايا الكثيرة  
التي ارتكبتها أو على ماسوف ارتكب من خطايا فيما بعد !  
ومن يدري هل كان مكتوبا في اللوح المحفوظ أن المحزن هي  
طريقي الوحيد ، وسبيلي الوحيد الذي مضت فيه أيامي  
الحزينة !

أن المحنة لايتعود عليها الانسان ، صدقني ، لأننا دائما نلوذ  
بالأمل في أن مانعاني منه هو آخر شيء في طريقنا بالرغم من أننا  
بعد ذلك ، مع مرور الوقت نبدا نعتقد - وبكثير من الحزن - أن  
اسوأ شيء لم يأت بعد ..

وقد طرأت على ذهني هذه الافكار لأنني عندما حدث الاجهاض  
عند لولا وعندما طعنت زكريا اعتقدت أنني سوف يغمي علي من  
الشوق لا لشيء إلا لأنني - وهذا أمر مؤكد - لم أكن حتى ذلك  
الوقت أشك في أن الأمور يمكن أن تتوقف عند هذا الحد .  
كانت هناك ثلاث سيدات أحطن بي عندما غادرنا باسكوال  
الصغير ، ثلاث سيدات كنت مرتبطا بهن برباط ما ، بالرغم من  
أنني في بعض الأحيان كنت أجدني غريبا عليهن مثلما تقابل  
شخصا مجهولا تلتقي به لأول مرة ، فأحس بأني بعيد عنهن مثل  
بعدي عن باقي الناس ، ومن هؤلاء الثلاث سيدات ، لا تجد  
واحدة صدقني ، لا واحدة عرفت بعطفها ، أو بطرقها الخاصة  
كيف تخفف علي مأساة موت الابن ، وانما على العكس ، بدا  
وكانهن قد اتفقن على أن يزدن حياتي مرارة ، هؤلاء النسوة



الثلاث هن زوجتى ، وأمى ، وأختى .  
فمن يستطيع أن يتحدث عن الآمال التى كانت تحوطنى عندما  
أكون فى صحبتهن !

إن النساء يشبهن الغربان ، فى الشؤم ونكران الجميل . دائما  
كان كلامهن هكذا .

- الملاك الصغير الذى حمله هواء سيىء !

- ذهبوا به إلى الأعراف كي يخلصوه منا !

- المخلوق الذى كان يشبه الشمس نفسها !

- والاحتضار !

- لقد وضعته على ذراعى وروحه تزهى .

- كانت هذه الكلمات تبدو وكأنها أوراد ، مرهقة وبطيئة مثل

ليالى النبيذ ، مملة ومشحونة مثل مشى الجحوش .

وهكذا مر يوم ، ويوم آخر ، وأسبوع ، وأسبوع آخر .. كان

هذا مرعبا ، عتابا من السماء أو بالتأكيد لعنة من الله .

أما أنا فكنت أكبت حزنى .

وفكرت .. لعلها الألفة هى التى جعلتهن قاسيات دون أن يردن

ذلك ..

وحاولت ألا اسمع . ألا أهتم ، وأنا أراهن يتصرفن دون أن

أضعهن فى اعتبارى وكأنهن دمي . وألا أعبا بكلامهن .. وتركت

الأسى يموت مع الوقت مثل الزهرات المقطوعة . لئذا بصمتى

مثل جوهرة فى محاولة لكى أخفف من معاناتى ما استطعت إلى

ذلك سبيلا . إنها طموحات جوفاء لم تكن لتخدمنى فى شىء اللهم

إلا لكى تجعلنى ازداد استغرابا يوما بعد يوم .. أراء مقولة الذين

يولدون من أجل الطريق السهل . وكيف تجسدت هذه الافكار ،

بأمر الله ، فى مخيلتى .

كنت أخشى غروب الشمس مثلما أخشى النار أو مثلما أخشى

الحنق ، أما اشعال قنديل المطبخ ، فى حوالى السابعة مساء ،  
فهو 'الشيء الذى كان يؤلمنى فعله على امتداد النهار ، فكل  
الظلال كانت تذكرنى بالابن الميت ، وكل ارتفاع أو انخفاض فى  
اللهيب ، وكل ضوضاء الليل ، هذه الضوضاء التى لا تكاد  
تسمع ، لكنها ترن فى أذاننا مثل طرقات السندان على الحديد .  
وهناك كان النسوة الثلاث بلباس الحداد مثل الغربان يلفهن  
الصمت مثل الموتى ، نافرات ، وجادات مثل شرطى الدرك .  
وفى بعض الأحيان كنت أكلمهن ، فى محاولة لإذابة الجليد .  
- الظرف قاس جدا .

- نعم ..

ثم نعود جميعا الى الصمت .

وألح من جديد .

- يبدو أن السيد جريجوريو لم يعد يبيع البغلة ، لعله سوف  
يحتاجها فى شيء !

- نعم .

- هل ذهبتن الى النهر ؟

- كلا .

- وإلى المقابر ؟

- أيضا لم نذهب .

ولم أعثر على وسيلة لإخراجهن مما كن فيه . والصبر الذى  
استخدمته معهن لم أستخدمه أبدا من قبل ، ولا سوف أعود  
لأستخدمه بعد ذلك مع أحد ، كنت أبدو وكأنى لم أنتبه الى  
الوضع الغريب الذى كن عليه ، حتى لا أندفع إلى الفضيحة التى  
كان لابد أن تقع ، وهى محتومة مثل الأمراض ، والحرائق ، مثل  
طلوع الشمس ، ومثل الموت ، لأنه لا أحد يملك القدرة على أن  
يمنعها .

ويبدو أن أكبر المأسى فى حياة الناس تأتى دون أن يفكروا

فيها ، فى خطى تشبه خطى الذئب الحذر ، فتوخزنا بمهمازها  
المفاجيء المخادع مثل ذنب العقارب .  
ويمكننى أن أرسمهن الآن وكأنهن مازلن أمام عيني ،  
بابتسامتهن المرة ، وأطلال الانثى الباردة ، بنظراتهن الشاردة  
لعدة فراسخ عبر الجدران ، . كانت اللحظات تمضى بقسوة ،  
والكلمات ترن ، وكأنها أصوات خارجة من شخص ظهر فجأة .  
- ها نحن نراه .  
ولعل البومة كانت واقفة على شجرة السرو .  
- كان مثل هذه ، الليل .  
- نعم .  
- كان الوقت متأخرا شيئا ما .  
- نعم .  
- والهواء الخائن السيء لا يزال يطوف بالحقول .  
- ضائع فى مزارع الزيتون .  
- نعم .  
وعاد الصمت بجرسه الطويل يملأ الحجرة .  
- أين سيمضى ذلك الهواء ؟  
- ذلك الهواء السيء الخائن !  
وتأخرت لولا بعض الوقت فى الرد .  
- لا أدري .  
- لعله يمر ببعض المخلوقات .  
وقد قامت زوجتى بعمل حركة لا يمكن أن تفعلها لبؤة تتعرض  
للهجوم .  
- من أجل أن تستلقى انसानه مثل رمانه ! تلد حتى يحمل  
الهواء المولود ، عقاب سيء ينتظرك .  
- لو أن شريان الماء الذى ينبع نقطة نقطة فوق القناة أمكنه  
أن يقضى على ذلك الهواء السيء !

— ١٢ —

لقد تغلغلت حتى العظام فى جسدك !

.....

- وفى لحمك كرجل لايتحمل عواذى الزمن !

.....

- ولايتحمل شمس الصيف !

.....

- ولا برد ديسمبر !

.....

- ومن أجل هذا رببت أنا صدرى . الصلب مثل الصوان !

.....

- ومن أجل هذا رببت أنا فمى . البارد مثل الخوخ !

.....

- ومن أجل هذا أعطيتك أنا ولدين ، لم يعرفا كيف يتحملان

سير الدابة ولا هواء الليل السيئ !

.....

كانت مثل المجنونة ، وكأنما قد ركبتها كل الشياطين ، هائمة

ومتوحشة مثل قط برى .. وكنت أنا اتحمل صامتاً الحقيقة

الكبرى .

- إنك مثل أخيك !

.. إنها طعنة الخيانة التى كانت زوجتى تستمتع بتصويبها

إلى :



لم يفدنا فى شىء أن نفذ السير عندما فاجأتنا العاصفة فى  
وسط السهل . فقد ابتلت ملابسنا وشعرنا بالتعب أكثر ، وأربكتنا  
الشرارات المنطلقة ، وشوش علينا هزيم الرعد ، وأخذ دمننا ،  
وهو فى حالة مضطربة ، يضرب فى الجبهة والحنجرة .  
- أى ، لو أن أباك استيبان رأى سوء حظك !

.....

- ودمك الذى يراق على الأرض عند لمسها !

.....

- هذه المرأة التى تملكها !

.....

هل كان يجب أن نواصل ؟ وقد سطعت الشمس فى كثير من  
الاحيان من أجل الجميع ، لكن ضوءها ، الذى يعشى عيون  
الناس ذوى البشرة البيضاء والشعر الابيض ، لا يكاد يصل الى  
السود لكى يطرف عيونهم .  
- لا تواصل !

ولم تكن أمى تستطيع أن تلومنى على الألم ، الألم الذى تركه  
فى صدرى الابن الميت ، المخلوق الذى ذهب مثل البرق ولما  
يتجاوز عمره الأحد عشر شهرا .

لقد قلت ذلك بشكل واضح ، وليس هناك وضوح أكثر من هذا .

- إن النار لابد وأن تحرقنا نحن الاثنين يا أمى .

- أى نار ؟

- هذه النار التى مازلت تلعبين بها .

وفعلت أمى حركة تدل على الاستغراب .

- ما الذى تريد أن تراه ؟

- إننا نحن الرجال نمتلك قلوبا شديدة الغلظة .

- لا يفيدكم هذا فى شىء .

- بل يفيدنا فى كل شىء !

لم تكن تفهم ، أمى لم تكن تفهم . كانت تنظر إلى ، وتكلمنى ..  
أى ، ليتها لم تنظر إلى !

- هل ترى الذئب التى تنطلق فى الجبل ، والباشق ( نوع من  
النسور - المترجم ) الذى يطير نحو السحب ، والثعبان الذى يترصّد  
بين الصخور ؟

.....

- الانسان أسوأ من كل هذه الكائنات مجتمعة !

- لماذا تقول لى هذا ؟

- لا لشيء !

وفكرت أن أقول لها .

- لأنى لابد أن أقتلك !

ولكن الصوت توقف فى حلقى .

وبقيت أنا وحدى مع الأخت ، البائسة ، المدنسة ، تلك التى  
كانت تملأ نظرة النساء المصونات بالبقع .

- هل سمعت ؟

- نعم

- لم أتصور ذلك أبدا !

- ولا أنا .

- ولم أفكر أبدا أنى انسان ملعون .

- ولست كذلك .

وقد تدافع الهواء على الجبل ذلك الهواء الخائن السيئ الذى  
كان ينطلق بين مزارع الزيتون ، والذى سوف يصل الى البحر  
حاملا معه بعض المخلوقات الهشة .. كان يصر فى النافذة  
بأنينه .

وبدت روساريو وكأنها تبكى .

- لماذا تقول إنك انسان ملعون ؟

- لست أنا الذى اقول ذلك .

.....

- إنهما هاتان المرأتان .

كان لهيب القنديل يصعد ويهبط مثل التنفس ، وفى المطبخ تنبعث رائحة الاسيتيلين ، الذى تفوح منه رائحة حادة وجذابة تتعمق حتى الأعصاب ، فتثير لحومنا ، لحومى الفقيرة المدانة التى لم يكن من السهل فى تلك الفترة أن تستجيب لأية إثارة . كانت أختى شاحبة ، لأن الحياة التى تحياها كانت تترك علامتها القاسية على أذنيها ، كنت أحبها بشفقة ، وكانت هى الأخرى تحبنى كذلك .

- روساريو ، ياأختى .

- باسكوال .

- حزين هو الزمن الذى ينتظر علينا .

- كل شيء سينصلح .

- ربنا يفعل مافيه الخير !

وعادت أُمى تتدخل .

- أرى أنه سيصير أسوأ .

وزوجتى ، الشريرة مثل الحية ، كانت تنطبع على شفيتها ابتسامة السوء .

- أنه لمحزن أن نتواكل وننتظر من الله أن يصلح من شئوننا .

إن الله فى السماء يرى كل شيء ، ولا تخفى عليه خافية ،

- وإذا أصلحه الله !

- ألن يريد لنا الخير .

.....

يقتل الانسان نفسه دون أن يفكر ، لقد جربت ذلك جيدا ، وأحيانا دون أن يريد ، يكره نفسه ، بشدة ، وبوحشية ، ويفتح المطواة ، ثم وهى مشرعة هكذا جيدا ، يصل ، حافيا ، إلى

السريـر الذى ينام عليه العدو . الجو ليل ، لكن ضوء القمر يتسلل من خصائص النافذة ، الرؤية واضحة ، وعلى السريـر يستلقى الميت ، الذى سوف يُفسى ميتا ، المرء ينظر إليه ، يسمعه يتنفس ، لا يتحرك انه ساكن وكأن لاشيء سوف يحدث .. وبما أن الحجرة قديمة فإن الأثاث يثير الفزع بصريـره لأنه يمكن أن يوقظه ، ومن ثم فإنه ربما يضطر المرء الى الاسراع بالطعنات . العدو يرفع طرف الملاءة قليلا ، ويستدير : مازال نائما ، جسده يتضخم كثيرا ، الملابس تخدع ، المرء يقترب بحذر شديد ، يلمسه بيده فى عناية أنه نائم ، يغط فى نوم عميق ، ولن يحس بشيء .

ولكن لايمكن أن يتم القتل هكذا ، إن هذا هو ما يفعله القتلة والمرء يفكر فى أن يعود أدراجه أن يتقهقر نفس الخطوات التى خطاها .. كلا ، ليس هذا ممكنا ، كل شيء تم التفكير فيه جيدا ، إنها لحظة ، لحظة قصيرة ، وبعد ذلك .

ولكن ليس من الممكن أيضا أن يعود القهقرى ، سوف يطلع النهار وفى النهار ربما لانستطيع أن نتحمل نظرتـه ، هذه النظرة التى مازالت تنغرس فىنا دون أن نصدق ذلك

لأبد من الهرب ، الهرب بعيدا عن القرية ، حيث لا أحد يعرفنا ، وحيث نستطيع أن نبدأ فى الكراهية بأنواع جديدة منها .. فالكراهية تتأخر سنوات حتى تتضخم ، والمرء لم يعد بعد طفلا وعندما تكبر الكراهية وتخنق فىنا النبضات ، تتاهب حياتنا للمغيب . فالقلب لن يتسع لقدر آخر من المرارة وهذه الأذرع ، التى بلا قوة ، سوف تسقط .



ظللت شهرا كاملا تقريبا دون أن أكتب شيئا ، مستلقيا على المرتبة ورأسى لأعلى ، أتأمل مرور الساعات ، هذه الساعات التي تبدو أحيانا وكأن لها أجنحة ، وأحيانا تتمثل لنا مثل المشلوله ، وقد تركت خيالي يحلق بحرية ، وهو الشيء الوحيد عندي الذي يمكن أن يطير حرا ، وأتأمل كشوط السقف كي أبحث لها عما يشبهها ، وفي هذا الشهر الطويل استمتعت على طريقتي - بالحياة على نحو لم أعرفه طوال السنوات الماضية بالرغم من كل الكروب والهموم.

عندما يغزو السلام الأرواح الواقعة في الخطيئة فإنه يكون مثل المياه التي تسقط على الأراضي البور فتؤدي إلى إخصاب الجاف وإحياء الموات . أقول ذلك لأنني إذا كنت قد تأخرت طويلا جدا ، أطول بكثير مما هو مفروض ، في التحقق من أن الهدوء ماهو إلا بركة من السماء ، بل إنها أعظم بركة يمن بها على الفقراء والمفزعين ، والآن بعد أن عرفت ذلك ، وبعد أن أصبح الهدوء يرافقني بحبه ، فإنني أستمتع به في خبل ونشوة وأخشي كثيرا أن استنفده قبل أن يحين أوان نفاذه ، نظرا لقله مايتبقى لي من وقت ، بل إنه وقت قليل بالفعل . ومن المحتمل أن السلام لو عمى قبل ذلك بسنوات ، وكان بهذه الدرجة ، التي تتبدى لي الآن وتحمل الكثير من البريق والراحة ، فإنني لأشك كثيرا في أنني كنت سأصبح مذهولا مثلما أنا الآن . ولكن الله لم يرد أن يحدث هذا ، والآن أجدني محبوسا والإدانة مصلته على رأسى ولا أدرى

هل من الأفضل ، إذا سقطت مرة واحدة أو امتد بي هذا الاحتضار ، الذى اتمسك به ، مع ذلك ، بكثير من الألفة ، إذا كان فى ذلك متسع بعد ، أقول هل من الأفضل لكى أتمسك بذلك أن تظل أيام حياتى هادئة . وأنت تعرف جيدا ما أريد أن أقوله .

ففى هذا الشهر الطويل الذى خصصته للتفكير ، مر بى كل شيء : الأسى والفرح ، والمتعة والحزن ، الإيمان والقلق والإحباط .. ياإلهى ، كم كانت هذه النكبات تنزل على أجساد هزيلة . كنت أرتعش وكأنى مصاب بالحمى عندما كانت إحدى حالات النفس تزايلنى وتأتينى أخرى ، وكانت الدموع تهرع إلى عينى خائفة ، أنها ثلاثون يوما طويلة متواصلة ، وأنا متفرغ للتفكير ، فى شيء واحد ، متفرغ لتربية مشاعر الندم العميقة ، ومشغول بفكرة أن كل السيئات الماضية لابد وأن تؤدى إلى الجحيم .. إننى أحسد رجل الصومعة الذى تظهر الطيبة على وجهه ، والطير فى السماء . والسماك فى الماء ، بل أحسد الوحش فى الاجام لأن ذاكرة كل هؤلاء هادئة . إن اسوأ شيء هو الزمن الماضى فى الخطيئة !

وبالأمس اعترفت كنت أنا الذى أعطيت الطلب للراهب جاءنى قسيس عجوز خفيف العارضين ، هو الأب سانتياجو لورينيا ، الطبيب المكروب والمحسن البالى مثل نملة .

وهو القسيس الذى يقيم القداس فى ايام الأحاد ، هذا القداس الذى يسمعه حوالى مائة شخص من القتلة ، ونصف دسته من الحرس وزوجان من الراهبات .

وعندما دخل استقبلته واقفا .

- عمت مساء ، ياأبانا .

- مرحبا ، يابنى ، قالوا لى أنك استدعيتنى .

- نعم ياسيدى ، أنا استدعيتك .

اقترب منى وقبلنى على جبهتى . منذ سنوات بعيدة لم يقبلنى أحد .

- هل تريد أن تعترف ؟
- نعم ، ياسيدى .
- يابنى - انك تمنحنى سعادة !
- أنا أيضا مسرور جدا ، ياأبانا .
- غفر الله لك ، فالله هو العزيز الغفار .
- نعم ، ياأبانا .
- إنه لشيء مبهج أن ترى النعجة الضالة عائدة .
- نعم ، ياأبانا .
- والابن المسرف الذى يعود الى بيت أبيه .
- ثم تناول يدي بعطف ، وأسندها على ثوبه وأخذ ينظر الى عيني وكأنه يريد أن أفهم أكثر .
- إن الايمان مثل النور الذى يقود أرواحنا عبر ظلمات الحياة .
- نعم .
- وهو مثل البلمس الاعجازى للأرواح المتألمة .
- كان السيد سانتياجو متأثرا وكان صوته يرتعش مثل صوت طفل مرتبك . نظر إلى مبتسما ، ابتسامة رقيقة تشبه ابتسامة قديس .

- هل تعرف ماهو الاعتراف ؟
- كنت أجبن عن الأجابة ، واضطرت أن أقول . بصوت متقطع :
- ليس كثيرا .
- لا تقلق ، يابنى ، لا أحد يولد عالما
- وقد شرح لى السيد سانتياجو بعض الاشياء التى لم أفهمها من كل الوجوه ، ومع ذلك لايد أن تكون حقيقة لأنها كانت تحمل رنين الحقيقة . ظللنا نتحدث وقتا طويلا ، طوال فترة العصرية

تقريبا ، وعندما انتهى حديثنا كانت الشمس قد اجتازت ساحة الأفق .

- استعد لاستقبال العفو ، يا بني ، العفو الذى أقدمه لك باسم الله مولانا .. صل معى لمولانا المسيح .

وعندما باركنى السيد سانتياجو ، اضطررت أن أبذل جهدا غير عادى لكى التقط البركة دون أن تكون هناك أفكار خبيثة تعشش فى الرأس ، التقطتها بأفضل ما عندى من قدرة على الاستقبال ،ؤكد لك ذلك ، وقد أحسست بكثير من العار ، كثير جدا ، لكنه لم يكن كثيرا الى الدرجة التى اعتقدت أن يكون عليها .

لم استطع أن أغمض عيني طوال الليل ، واليوم أحس بالتعب والانهاك وكأني مضروب « علة » ومع ذلك فيما أن أمامي هنا كومة الأوراق التى طلبتها من المدير . وبما أني لا أجد أمامي وسيلة أخرى بها من حالة الانسحاق التى أحس بها إلا أن أسود الورق وكثيرا من الورق فسوف أحاول أن أبدأ من جديد ، وأن أخذ مرة أخرى خيط الحكاية ، وأن أعطي دفعة لهذه المذكرات حتى أضعها فى طريق النهاية وسوف نرى هل ساجد القوة الكافية التى تنقصني كثيرا أم لا .. وعندما أفكر فى أن الاندفاع قليلا فى الأحداث يجعل حكايتي تقف فى المنتصف وتظل مبتورة يملكني الضيق وأرغب فى السيطرة على عنصر السرعة ، لأنني اعتقد أني اذا كنت سأكتب كما سأكتب ، قليلا قليلا ، مستجمعا الحواس الخمس فيما أفعل ، فإن القصة لن تخرج بكل الوضوح الذى أبتغيه ، اللهم إلا اذا تدفقت القصة مثلما يتدفق نبع ، فى غير قليل من عدم الحذق والتجويد ، حتى أن الوالد نفسه - الذى هو انا - لن يستطيع التعرف على وليده ، وهذه الاشياء الموجودة معظمها فى الذاكرة ينبغي العناية بها بكل حب لأن تشويش الأحداث موضوع ليس له حل إلا بتمزيق الأوراق وإعادة



الكتابة ، وهو حل أهرب منه مثلما أهرب من الخطر ، لأن الأجزاء الثانية لا يمكن أن تكون أبدا حسنة ، وربما تجد سيادتك نوعا من الفطرسية في هذه الرغبة عندي في أن تخرج الأشياء الثانوية بصورة طيبة . بينما الأشياء الرئيسية تمنحني بشكل سيء ، وربما نفكر سيادتك والابتسامة على سفتيك أنه من باب الأدعاء المغالي فيه من جانبي أن أشغل نفسي باز تخرج هذه الأوراق على أفضل ما يكون ، وفي هذا فإن أي شخص متعلم سوف يتصرف بشكل طبيعي تماما ، وببساطة شديدة ، ولكن ينبغي أن تذبح في اعتذارك الجهد الذي يعنيه بالنسبة لي كوني ظلمت أكتب تقريبا بدون توقف منذ حوالي أربعة شهور وهو أمر لم يحدث له مثيل في حياتي ، ولهذا فإنه من الممكن أن نجد لي بعض العذر في تفكيري هذا .

أن الأشياء لا يمكن أن تكون أبدا على نحو ما نتصورها للرحلة الأولى . ومن ثم يحدث أننا عندما نبدأ برأينا عن قرب ساعدتني نبدأ في التعامل معها ، انها تقدم لنا غريبة جدا وبها جوانب مجهولة تماما عن الفكرة الأولى التي قد لا تبقى منها الأكرى في بعض الأحيان . يحدث هذا مع الوجود التي نتخيلها . ومع التعريب التي سوف نتعرف عليها ، حيث نفعل ذلك في رأسنا بهذا الشكل أو ذاك ، حتى لنفسي أنفسنا فجأة عند رؤية المشهد الحقيقي . وهذا هو ما حدث لي مع هذا الورق ، فإذا كنت في البداية قد اعتقدت أنني سوف أنهيه في ثمانية أيام ، فاني الآن - وبعد مائة وعشرين يوما - أجد البسمة تنطبع على شفاتي لا لأشيء إلا لأني افكر فيما تنطوي عليه شخصيتي من براءة . ولا أعتقد أنه من الخطيئة أن يحكي المرء أعمالا بربرية هو عليها نادم . وقد صرح لي السيد سانتياجو أن أفعل ذلك إذا كان هذا يحمل لي بعض المواساة ، وبما أنه يحمل لي ذلك فعلا ، والسيد سانتياجو لا ينتظر منه إلا أنه يعرف جيدا موقع أوامره

من الخطأ أو الصواب فأنى أرى أن الله لن يغضب منى إذا واصلت حكايتى . هناك لحظات يؤلمنى جدا خلالها أن أحكى التفاصيل نقطة بنقطة ، كبيرة كانت أو صغيرة ، عن حياتى الحزينة ، ولكن هناك لحظات أخرى فيها تعويض ، لحظات أتمتع فيها أيضا بأشرف المتع وأفضلها ، ربما لأنى وأنا أحكيها أجدنى بعيدا جدا عن كل هذا الماضى ، وكأننى أحكى سماعا أو نقلا عن شخص مجهول - وتمة فرق كبير بين الماضى وبين ما أحاول أن أجعله أنا ماضيا إذا استطعت أن أبدأ من جديد ! ولكن ينبغى أن يرضى الانسان بما هو كائن ، وماليس له أى علاج ممكن وما هو واقع فعلا ، ونحاول أن نحول دون استمراره ، وأنا بالأهل أعرف كيف أتجنب ذلك وإن كان هناك عامل مساعد فى هذا وهو الحبس .. لا أريد أن أبالغ فى النقطة المتعلقة بوجدانى فى هذه الساعة الأخيرة من حياتى لأنى سوف أقول كلاما يبدو مثل الجدرى فى فترة الشيخوخة ، ومن الأفضل ألا أنطق به ، لكنى أريد مع ذلك أن أترك الأشياء عند نقطتها الأخيرة ، وأؤكد لك أن عائلتى كانت ستصبح عائلة نموذجية لو أن حياتى سارت كلها على نفس الطريق المستقيم الذى تسير عليه اليوم .

سوف أستم - إن شهرا بدون كتابة فيه هدوء كبير لمن نبضاته معدودة وطمانينة زائدة عن الحد لمن أجبرته العادة على أن يكون غير مطمئن .

لم أضيع الوقت فى الإعداد للهرب ، فهناك موضوعات لاتقبل الانتظار ، وهذا موضوع منها ، لقد قلبت الصندوق فى الحقيبة ، وخزانة الطعام فى الخرج وصابورة ( ما يوضع من ثقل لاحداث توازن المترجم ) الاهكار السيئة فى عمق البئر ، ولكي أستغل الليل مثل لص ، انصرفت ، وضعت رحلى على الطريق ، وبدأت فى السير - دون أن أعرف جيداً الى أين أمضى ، للامام وبشكل متواصل - لدرجة أنه ، عند طلوع النهار ، وعندما زادت حدة التعب الذى كنت أحس به فى العظام ، كانت القرية خلفى على بعد لايقبل عن ثلاثة فراسخ وبما أنى لم أكن أريد أن أتوقف ، ولأن الناس فى تلك الأراضى كان يمكن أن يتعرفوا على ، فقد أرحت رأسى قليلاً تحت شجرة زيتون على جانب الطريق ، واكلت سندوتشا مما معى ، ثم انطلقت للامام مندفعاً بالرغبة فى ركوب القطار بمجرد أن تقع عينى عليه كان الناس ينظرون الى باستغراب ، ربما لمنظرى الذى يشبه الجوال ، والاطفال كانوا يتبعوننى فى فضول وأنا أعبر المناطق السكنية مثلما يتبعون المجرمين أو الفاشلين ، وكانت نظراتهم القلقة وهيئتهم الطفولية ، بدلاً من أن تضايقنى تمنحنى شعوراً بالصحة ، ولولا أنى كنت فى ذلك الحين أخشى النساء مثلما أخشى وباء الكوليرا المعدى لتجرات على أن أنفحهم من بعض الأشياء التى كنت أحملها لنفسى . وقد لحقت بالقطار فى « دون بينيتو » وهناك طلبت تذكرة

لمدريد ، لا لكى أبقي فى العاصمة وإنما لكى استمر فى السير إلى  
أى نقطة أحاول أن أنطلق منها إلى الأمريكتين ، وقد كانت الرحلة  
طيبة لأن العرببة التى ركبت فيها لم تكن حالتها سيئة ، ولأنها  
كانت بالنسبة لى تنطوى على كثير من التجديد وأنا أرى الحفول  
تمضى وكأنها فى سهل تدفعه يد غير مرئية وعندما نزل كل الناس  
تحققت من أننا وصلنا إلى مدريد ، وكنت أتصور أننا مازالنا  
بعيدين عن العاصمة ، لدرجة أن قلبى تحرك من مكانه فى  
صدرى ، وهذا التحرك داخل الصدر يدفع القلب دائما عندما  
نقابل الشيء المؤكد ، الذى ليس له علاج ، وصار قريبا جدا بعد  
أن كان شديد البعد عالى نحو ما كنا نأمله .

وبما أنى كنت مدريا أن مدريد بها كثير من الصناعات ، وأنا  
أننا قد وصلنا ليلا ، وهو وقت ينتشر فيه الأرقاع والندى نور  
ويمكن أن يحسكوا بى ، فكرت فى أن أفضل طريقة للحج هى أن  
أنتظر طالع النهار حتى أبحث لى عز مكان لافاننا ، والتمهل  
خلال هذا الوقت فأنام على مقعد من البقايا ، الكثير الذى كانت  
موجودة فى المحطة ، وهذا مافعلته ، فقد بحثت عن المقعد فى  
الطرف ، بعيد قليلا عن الصخب الكثير ، واستلقيت على المقعد  
مريحة قدر الاستطاعة وليس لى من حام إلا الضلالتة التى قد  
ظلت نائدا مثل صخرة ، بالرغم من أنى عندما استلقيت فكرت أن  
أقلد نوم الحجل ، عين مفتوحة وأخرى نرتاح ، نعمت بدمي حاد  
طلوع اليوم الجديد تقريبا ، وعندما استيقظت كان البرد يقرر  
عظامى وأحسست بالرطوبة فى جسمى لدرجة أنى فكرت أن  
أفضل طريقة هى ألا أتوقف لحظة واحدة بعد ذلك ، خرجت من  
المحطة واقتربت من مجموعة من العمال كانوا مجتمعين حول  
شعلة نار ، فاستقبلونى استقبالا طيبا وأوسعوا لى مكانا بينهم  
فاستطعت أن استبدل ببرد الجلد حر اللهب ، أما الحديث الذى  
كان يبدو فى البداية شبه محتضر فقد انتعش بسرعة ، وبما أن



هؤلاء الناس كانوا يبدون لى ناسا طبيين ، وكان كل ما احتاج اليه فى مدريد هو الاصدقاء فقد طلبت من ولد صايغ كان بالقرب منا ان يشتوى لى لتر من النبيذ ، وهو لتر لم أذق منه جرعة واحدة ولم يذق هذه هؤلاء الذين كانوا معى شيئا لأن الولد ، الذى لا بد انه كان يعرف أكثر من « لى » ، أخذ النقر ولم نره بعد ذلك أبدا . وبما أن فكرتى كانت تتمثل فى أن أهديهم أى شيء من مالهم من أجل انهم ظلوا يضحكون على عملية الولد هذه ، فقد كنت أبحث عن كثير من أعقد صداقات معهم . انتظرت حتى طلع النهار فوجدت رجلا لا أدرى كيف حدثت ، ذهبت معهم إلى أحد بيوتهم فوجدت رجلا لكل واحد منهم ثمن بواب قهوة باللبن أدى إلى أنهم قد دعوا أصدقاءنا إلى وكانوا لى من الشاكرين تحدثت معهم فى مكان الإقامة فعرش على أحدهم - ويسمى أنخل - وسأله عن أن لى فى بيته ويتقدم لى وجبتين فى اليوم ، وكل هذا بحد ذاته بالادف فقط . وهو شعر لم يبد لى للوهلة الأولى عائلته لى الذى حدث هو أنى طوال إقامتى فى مدريد وفى بيته ، يحصل لى ألف ريال من العشرة تزيد عشرة أخرى على الأقل فى اليوم لى استيفيس كان يكسبنى كل ليلة فى لعبة « السبعة » وعندما كان لى شان يتقما بها هو وزوجته .

لما كنت فى مدريد أياما كثيرة ، إذ لم تبلغ الخامسة عشر يوما وهو الوقت الذى حشيت فيه هناك شخصيته للتسلية بأقل ثمن يمكن لى من وراء بعض الأشياء البسيطة التى كنت احتاج إليها ، ووجدت سحرها معقولا فى شارع بوستاس ، وفى الميدان الكبير ، وفى المساء . عند غروب الشمس ، كنت أذهب لأصرف بيزيتة واحدة فى مقهى به غناء فى شارع الجمارك - كان يطلق عليه إيدن كونسرت - وهناك أظل أشاهد الفنانة حتى ساعة تناول العشاء - وبعد ذلك أمضى الى غرفة السطح عند استيفيس ، فى شارع لاترنيرا . وعندما أصل الى البيت كانت

الأمور تمضى بشكل منتظم ، الزوجة تسحب الشواء ، تأكله ، وبعد ذلك نبدأ فى لعب الكوتشينة بصحبة اثنين من الجيران يصعدان كل ليلة ، فنتحلق بجوار السرير ، وأرجلنا ممدودة جيدا بالقرب من جذوات النار المشتعلة ، ونظل كذلك حتى الفجر . وقد بدت لى تلك الحياة مسلية ، ولولا أنى كنت قد عرمت عرما أكيدا على ألا أعود الى القرية لبقيت فى مدريد الى أن أستنفذ آخر سليم فى جيبى .

كان بيت مضيفي يبدو مثل برج الحمام ، على السقف كذا هو واضح . لكن بما أنهم لم يكونوا يفتحونه حتى الليل ، بعض المعروف والجذوات تظل مشتعلة به ليلا ونهارا ، فإنه لا يجر سينا وأنا أجلس حوالبه ورجلاى تحت سطح المظلة . أما الحجرة التى خصصوها لى فكان فى سقفها احذاء فى الجزء الذى وضعت فيه الحشبة ( الدرنبة ) وقد ظلمت أكثر من مرة حتى تعردت . أفاجأ برأسى تخبط فى جزء نائىء فى انحناء البيت الى أنه كان موجودا هناك ، وبعد ذلك عندما الغاب الغبار انتبعت الى الاشياء الداخلة والخارجة فى الحجرة حتى انى صرت قادرا على أن اتوجه . مغمض العينين . الى السرير كل شيء يأتى حسب العادة .

أما امراته . واسمها ، كونتيبثيون كاستيلو لوبيث . مشهورة ذكرت لى هى نفسها ، فقد كانت صبية . دقيقة الحجد . وجهها يحمل ملامح صعلكة تجعل منها أليفة ومزهوة وسريعة الخاطر على النحو الذى اشتهرت به بنات مدريد كانت تنظر الى فى وقاحة . وتتحدث معى عن أى شيء ، لكنها بسرعة أظهرت لى بمجرد أن اختبرتها حتى تظهر لى ذلك - أنها لايمكن أن ينتظر منها شيء . كانت تهيم حبا بزوجها ، وكانت لا ترى فى الدنيا رجلا إلا هو ، كانت جميلة وجذابة على النحو الذى لا يوجد عند الكثيرات بالرغم من أنها كانت تبدو لى مختلفة عن نساء قرىتى ،

ولكن بما أنها لم تعطني على الإطلاق فرصة لأى شيء ، وأنا من جهة أخرى كنت فى حالة جبن فقد تحررت أمام ناظرى وكبرت حتى جاء يوم صارت بعيدة تماما عن نظرى حتى لم أعد أفكر فيها على الإطلاق ، كان الزوج غيورا مثل سلطان ، ويبدو أنه لم يكن يثق كثيرا فى زوجته لأنه لم يكن يتركها تطل على السلم ، ومازلت أذكر ما حدث ذات يوم . وكان يوم أحد مساء ، أن فكر استيبيس فى أن نقوم بجولة فى حدائق الريتيرو ، نحن الثلاثة هو وزوجته وأنا ، وقد ظل طوال الوقت يراقبها ليرى هل تنظر إلى هذا الشخص أو ذاك ، أو هل تترك نفسها لكي ينظر إليها هذا أو ذاك ، والعجيب أن هذه الأشياء كانت تتحملها زوجته وهى راضية تماما ، بل إنها ردت عليه بحركة ملاطفة فى وجهه ، جعلتنى شاردا للبل الآخر لم أكن أنتظر أن يحدث هذا . وقد تجولنا فى حدائق الرينديرو ودربنا عدة دورات فى الممر الواقع بجوار البركة . وفى إحدى هذه الدورات دخل استيبيس فى حوار صارخ مع آخر كان يمر من هناك ، كان الحوار يتم بسرعة وتستخدم فيه كلمات مستفاد بعناية حتى أنى لم أستطع أن اقتصر من هذه الكلمات إلا أقل من نصفها ، كانا يتشاجران لأن الآخر ، فيما يبدو كان قد ألقى نظرة على كونثيبسيون ، ولكن الذى مازلت أندهش له حتى الآن هو أنه مع كل هذه الشتائم التى انطلقت بها حنجرة كل منهما لم تحدث أية إشارة باليد . لقد سب كل منهما للآخر أمه ، واستخدما الفاظا مثل « سوقى » و « ديوس » . وحدثت تهديدات بأكل الكبد وخلافه ولكن الشيء الغريب جدا هو أن لا أحد منهما لمس شعرة من الآخر ، وأنا كنت مفزوعا وأنا أرى هذه العادات غير الشائعة ، لكنى بالطبع ، لم أتدخل ، وإن كنت قد هيات نفسى للتدخل فى حالة ما إذا اضطررت للدفاع عن صديقى . وعندما أحسا بالملل من هذه الشتائم المتبادلة مضى كل منهما لحال سبيله ولم يحدث شيء

شيء طيب ! لو أننا نحن رجال الريف لدينا طول البال هذا الذي عند أهل المدن لاصبحت السجون خالية مثل الجزر . وبعد أسبوعين ، وقبل أن اتعرف على مدريد جيدا ، فهذه ليست مدينة يمكن أن تتعرف عليها من موقع طائر ، قررت أن أستأنف الرحلة الى حيث كنت قد حددت هدفي ، فأعددت مابقى لي من متاع قليل في حقيبة صغيرة اشتريتها لهذا الغرض ، وحجزت بطاقة للسفر بالقطار ، وبصحبة استيبيس الذي لم يتركني لأخر لحظة ، توجهت الى المحطة - وكانت محطة أخرى مختلفة عن المحطة التي جئت منها - وبدأت الرحلة الى لاكورونيا ، وكانت كما ذكر لي ، نقطة عبور البواخر التي تتوجه الى الأمريكتين . كانت الرحلة حتى الميناء أبطأ بقليل من الرحلة من القرية إلى مدريد نظرا لبعد المسافة ولكن لأنني قضيت الليل بالداخل ، ولست ممن تمنعهم حركة القطار وضجيج من النوم ، فقد مر الوقت بأسرع مما كنت أتصور وأيقظني جيران الرحلة ، وبعد ساعات قليلة عن استيغانزي وجدت نفسي على شاطئ البحر ، وهذا شيء من الأشياء التي فنيته فيها في هذه الحياة ، لما ينطوي عليه من عظمة وعمق .

وعندما سويت بعض موضوعاتي البسيطة الأولى أدركت جيدا كم كنت ساذجا وأنا أعتقد ان مجموعة البيرنيقات التي أحضرتها في جيبى كانت تكفيني للوصول الى أمريكا فلم يحدث قبل ذلك على الاطلاق أن فكرت في أن الرحلة بالبحر يمكن أن تكلفني غاليا ! ذهبت الى وكالة السفر ، وسألت في أحد الشبابيك ، فأرسلوني للسؤال في شبك آخر ، انتظرت في طابور استغرق ثلاث ساعات على الأقل ، وعندما اقتربت من الموظف وبدأت أسأله عن أى الطرق أنسب لي ، وكم من النقود سأتكلف ، وجدته ، دون أن ينبث بكلمة ، يدور نصف دوره ، لكي يعود على أنامله وورقة في يده .



- الطرق .. التعريفات .. مواعيد الخروج من لاكورونا يومى  
٥ و ٢٠ .

وحاولت ولكن بدون جدوى . فقد قاطعنى فى لهجة جافة  
تركتنى شاردة .  
- لا تلج .

ومشيت بطرقى وتعريفاتى ، محتفظا فى الذاكرة بيومى  
الخروج . هل هناك وسيلة أخرى !

وفى البيت الذى نزلت به كان يقيم أيضا صول فى سلاح  
المشاة تطوع اكى يفك لى ماهو موجود فى الأوراق التى أعطوها  
فى الوكالة . وعندما كلمنى عن السعر وعن شروط الدفع سقطت  
روحى عندى بعد أن حسبت أنى لا أملك نصف هذا المبلغ ،  
وهذه المشكلة التى عرضت أمامى لم تكن صغيرة فضلا عن أنى  
لم أعتزلها على حل . أما الصول الذى كان يدعى أدريان نوجيرا  
فقد أخذ يتسجعنى وهو أيضا كان هناك - حدثنى كثيرا عن  
لاهابانا . وحتى عن نيويورك . وأنا - ولماذا أخفى ذلك ؟ كنت  
أسمع له فى زعمول وغى حالة من الغبطة لم تحدث لى أبدا تجاه  
أحد غيره . ولخفى بعد أن رأيت أن الشىء الوحيد الذى كنت  
أكسبه من حديثه هو استطالة أسناني . فقد رجوته ذات يوم ألا  
يستمر فى هذا الحديث لأن موضوع بقائى فى البلد أصبح أمرا  
لا مخلص منه . وقد وجدت وجهه ينقلب على نحو لم أعده فية من  
قبل . ولكن بما أنه كان رجلا عاقلا ومحافظة مثل كل أهل جليقية  
( منطقة فى شمال غرب اسبانيا - المترجم ) لم يعد إلى الحديث مرة أخرى فى  
هذا الموضوع .

أما رأسى فقد صارت مثل المطحونة من كثرة التفكير فيما  
ينبغى على أن أفعله ، وبما أن أى حل لا يتضمن العودة الى  
القرية كان يبدو لى مقبولا ، فقد حاولت أن أتأقلم مع الظروف  
بشتى الطرق ، قمت بتحميل الحقائق فى المحطة ، والطرود على

الميناء ، وساعدت فى أعمال الطبخ فى فندق السكك الحديدية ، واشتغلت حارسا ليليا لفترة فى مصنع تبغ ، وأخذت من كل شىء بطرف حتى انقضى وقتى فى هذا الميناء البحرى وأنا أعيش فى منزل أباتشا ، فى شارع الهدهد ، يسارا حيث خدمت فى كل شىء ، بالرغم من أن عملى الاساسى كان يقتصر على أن أقوم بطرد هؤلاء الذين يلاحظ عليهم أنهم لايجيدون إلا إثارة الفتن . وهناك مكثت حوالى عام ونصف العام ، وإذا أضفنا هذه المدة إلى نصف العام الذى قضيته متجولا فى العالم وبعيدا عن بيتى فإن هذا يجعلنى أتذكر مرارا كيف صرت أعتقد فيما تركته هناك ، فى البداية كان ذلك يحدث خلال الليل فقط ، عندما أستلقى على السرير الموضوع لى فى المطبخ - ولكز شيئا فشيئا ، أخذ التفكير يمتد لساعات وساعات حتى جاء يوم صار فيه الحنين - كما يطلقون عليه فى لاكورونيا ( يستخدم الكاتب كلمة خاصة بأهل هذا البلد - المترجم ) يغزوني لدرجة أنى وجدت نفسى فجأة فى كوخ على الطريق الزراعى . فكرت أنى لابد وأن أستقبل استقبالا طيبا من جانب أسرتى - فالزمن يعالج كل شىء وكبرت هذه الرغبة فى نفسى مثلما يكبر عش الغراب فى وسط الرطوبة . اقترضت بعض النقود ، وقد كلفنى هذا بعض الجهد ، ولكنى حصلت عليها ، مثل كل شىء ، ببعض الاصرار ، وذات يوم ، بعد أن ودعت كل حماتى ، وعلى رأسهم لأباتشا ، بدأت رحلة العودة هذه الرحلة التى كان يمكن أن اشير اليها بكلمة سعيدة لولم يتدخل الشيطان بدسائسه فى بيتى - وهو شىء لم أكن أعرفه فى ذلك الحين - ويوسوس لامراتى خلال فترة غيابى - والواقع أنه من الطبيعى جدا ان تتأثر زوجتى كثيرا ، وهى الشابة والجميلة فى ذلك الحين ، بغياب الزوج خاصة وأن حظها من التعليم كان قليلا . إنه هروبى ، خطيئتى الكبرى ، التى لم يكن ينبغى أن أرتكبها أبدا ، والتى أراد الله أن يعاقب عليها ، من يعرف ، ولو بقسوة ...

مرت سبعة أيام بعد عودتي . عندما قامت زوجتي . التي كانت  
قد استقبلتني برد كبير . على الأقل في الظاهر . بقطع تيار  
أحلامي لتقول لي

- انظر أبي استقبلتك البرود شديد

- كذا يا امرأة

- لا أرى مد يدك انظر انك تبارك تعرف . إذ مد شعور أن أراك

عائدا

- لكحل الأبرق في عينه . انظر كذلك :

- بعد الأبرق استمر

كأنه لم لا يتحرك . ولم يمتدحها فغير كبير في كل شيء .

- ثم سألني رأيت

- رأيت من بعد ما استمر رأيت أفي عذات

وعادته انظر في حديقته بركة الضوى

- سمان وقد شير

- كنير

- وفي سمنير المنير بعطى دورات كثيرة

- سنتان قال لي ذلك أحد البحارة في لاكورونا !

هكذا جوفت صوتها لتقول لي هذا . وكانت نظرتها مثل غابه

من الظلال .

- دورات كثيرة !

- كثيرة !

- والواحدة تفكر : في سنتين ما الذي نفتقر إليه . الله هو

الذي أخذه .





وقامت زوجتي بحركة وكأنها تنوسل .  
 - باسكوال . هل لديك القدرة ؟  
 - نعم ، يالولا : كل القدرة . وهل ساكون الأول ؟  
 - يا باسكوال : احسن به أكثر قوة من أي جفنين آخر ، أحسن أنه  
 سوف يعيش ...

- من أجل عاري ؟  
 - أو من أجل سعادتك ، ماذا يعرف الناس ؟  
 - الناس : إذا لم يعرفوا  
 كانت نولا تسعد ابنتها طفل أسببت معاملته . تجرح  
 النظر

- من يدري ؟ ربما لا تجعل الناس تعرف !  
 - وأنت ، أنت تعرفي بهن ؟  
 لم أكن أحسن بهن ، في ذلك حين تعلمين . ولكن المرء  
 مربوط بسعادة غيره ، أنت تعلمين بهن ؟  
 فلو أن صديقي خريج من كلية الطب ، لسامحت ، ولكن  
 العالم على ما هو عليه الرعدة في التقدم ضد التيار ليست إلا  
 محاولة غير مجدية

- لعل من الأفضل أن نسلط عليها  
 - السيدة إنجرائيا  
 - نعم  
 - كلا . واللذ : أجهض آخر ؟ هو الوضع دائما بهدف الوضع  
 هو بمثابة تربية أبيض ؟

وعندئذ أرنمت على الأرض حتى قبلت رجلي .  
 - أعطيك حياتي كلها ، إذا طلبتها مني !  
 - لا أريدها في شيء .  
 - وعيناي ودمي ، لأنني أهنتك !  
 - ولا هذا .

- صدرى ، وخصلات شعرى ، وأسنانى ! أعطيك كل ما تريد :  
لكن لا تأخذه منى ، فأنا أعيش من أجله !  
كان من الأفضل أن أتركها تبكى ، تبكى طويلا ، حتى تسقط  
مستسلمة ، محطمة الأعصاب ، لكن أكثر هدوءا ، وأكثر تعقلا .  
أما أمى البائسة التى لا بد أنها كانت سببا فى كل الأحداث  
الماضية ، فقد ظلت مثل هاربة ولم تظهر أمام ناظرى . إن حرارة  
الحقيقة تجرح كثيرا ! لم تتكلم معى إلا أقل الكلمات الممكنة ،  
وكانت خارجة من أحد الأبواب عندما كنت أنا أدخل فى آخر ،  
وكانت قد أعدت لى الطعام فى الوقت المعتاد - وهو شئ لم  
يحدث من قبل ولا أظن أنه سوف يحدث بعد ذلك - ، إنه لمن  
المؤسف أن نتصور أنه لى نمضى فى سلام لا بد من التزام جانب  
الخوف ! ، كانت تظهر هذه الوداعة فى كل حركاتها ، حتى أنى  
بدأت أتحير تجاهها . ولم أرد أبدا أن أتكلم معها عن موضوع  
لولا : ذلك لأن الأمر كان يخص كلينا وحدنا ، وأنه كان لا يمكن  
حله إلا بالاتفاق فيما بيننا .

وذات يوم ناديت لولا لى أقول لها :

- يمكن أن تكونى مطمئنة .

- لماذا ؟

- لأنه لا ينبغى لأحد أن يستدعى السيدة إنجراثيا .

ظلت لولا لحظة تفكر ، مثل مالك الحزين .

- أنت طيب جدا ، ياباسكوال .

- نعم : أفضل مما تظنين .

- وأفضل مما أنا عليه .

- لا ينبغى أن نتحدث عن هذا ! مع من حدث هذا ؟

- لا تسأل عن ذلك !

- أفضل أن أكون على علم بالأمر ، يالولا .

- ولكنى أخاف أن أقوله لك .

- أتخافين ؟

- نعم : من أن تقتله .

- هل تحببته هكذا كثيرا .
- لا أحبه .
- إذن ؟
- ذلك أن الدم يبدو وكأنه ضمان حياتك ...
- هذه الكلمات ظلت مسجلة في رأسي وكأنها من نار ، وبما أنها مسجلة بالنار فسوف تموت معي .
- وإذا أقسمت لك أنه لن يحدث شيء .
- لن أصدقك .
- لماذا ؟
- لأن هذا مستحيل ، ياباسكوال ، أنت رجل بكل معنى الكلمة .
- شكرا لله ؛ ولكن مازالت لدى كلمة .
- وألقت لولا نفسها بين ذراعي .
- أنا على استعداد لأن أقدم سنوات من حياتي في مقابل ألا يحدث شيء .

- أنا أصدقك .
- وفي مقابل أن تسامحني !
- أسامحك ، يالولا . ولكن سوف تقولين ...
- نعم .
- كانت شاحبة على نحو لم يحدث من قبل ؛ وغير متماسكة ؛ أما وجهها فيبعث على الخوف ، خوف فظيع من أن تعود لها المصائب مع عودتي ؛ تناولت رأسها ، داعبتها ، كلمتها بود أكثر مما يستخدمه الزوج الشديد الوفاء ؛ أسندتها على كتفي ، وأنا مدرك لمبلغ ما تعاني ؛ وكأنني أخشى أن أراها وقد أغمى عليها من سؤالي .

- من هو ؟
- أبو شداد !
- أبو شداد ؟

لم ترد لولا .

كانت ميتة ، وقد مالت رأسها على صدرها ، وانسدل شعرها  
على وجهها ... ظلت لحظة في حالة توازن ، جالسة حيث كانت ،  
ثم سقطت فجأة على أرض المطبخ . التي كانت كلها عبارة عن  
حصوات واطئة جدا .



تقلب عش من العقارب فى صدرى ، وفى كل قطرة من دماء  
أوردتى ، حية تمارس العض فى لحمى .  
خرجت أبحث عن فاتل زوجتى ، عن مدنس أختى ، عن الرجل  
الذى ملأ جنبى بالمرارة : وقد بذلت جهدا حتى عثرت عليه شاردا  
كعاداته . لقد علم الوغد بوصولى ، فوضع بيننا مسافات ، ولم  
يظهر طوال أربعة شهور فى المندرا ليخو : ولكنى خرجت للبحث  
عنه ، فذهبت إلى بيت نيفيس ، رأيت روساريو ... كم تغيرت !  
بدت عليها علامات الشيخوخة . حيث امتلأ وجهها بالتجاعيد  
السابقة لأوانها ، وقد حال لون الأذنين إلى السواد والشعر  
ذابل : كان النظر إليها يبعث على الأسى ، بعد أن كانت جميلة .

- جئت تبحث عن ماذا ؟

- جئت أبحث عن رجل !

- قليل الرجولة من يهرب من عدوه .

- أجل ...

- وقليل الرجولة من لا يتربص زيارة منتظرة .

- أجل ... أين هو ؟

- لا أدرى : خرج بالأمس .

- إلى أين خرج ؟

- لا أدرى .

- ألا تدريين ؟

- بلى .

- هل أنت متأكدة ؟  
- مثلما أنا متأكدة أننا الآن فى ساعة من نهار .  
بدا أنها كانت تتكلم صدقا : فقد أظهرت لى روساريو عطفها  
عندما عادت إلى البيت ، لكى تعتنى بى . وتركت أبا شداد .  
- أتعرفين هل ذهب إلى بعيد ؟  
- لم يقل لى شيئا .

ولم يعد هناك من حل أمام المرء إلا أن يدفن عفريته : ويدفع  
من تعاسته فى مقابل الغضب الذى نحتفظ به تجاه الأوغاد .  
يكن هذا أبدا من شيم الرجال .  
- هل كنت تعرف ما حدث ؟  
- نعم .  
- ومع ذلك ظللت صامتا ؟  
- لمن كان ينبغى على أن أحكيه ؟  
- لا أحد ...

والحق أنه لم يكن هناك أحد أرى ما يدفعنى إلى أن أحكى له :  
هناك أشياء لا تهم الناس كلهم . أشياء يتحملها الإنسان بمفرده .  
مثل صليب الاستشهاد ، ويحجبها عن الآخرين . فلا يمكن أن  
نحكى للناس كل ما يحدث لنا ، لأنهم فى أغلب الحالات لن يعرفوا  
كيف يفهموننا .

وقد عادت روسا معى .  
- لا أريد أن أبقي هنا يوما واحدا بعد ذلك : أنا متعبة .  
وهكذا عادت إلى البيت ، خجولة ، وشبه منطوية . متواضعة  
وشغالة على نحو لم أره عليها أبدا من قبل : كانت تعتنى بى  
عناية فائقة لم أعرف أبدا - أى ! . وهذا هو أسوأ ما فى  
الموضوع - ولن أعرف كيف أشكرها عليها بما فيه الكفاية . كانت  
تعد لى دائما قميصا نظيفا ، وكانت تجهز لى الحجرات بأفضل ما  
يكون التجهيز ، وتحتفظ لى بالطعام ساخنا حتى ولو تأخرت ...

شيء طيب أن يعيش المرء هكذا ! كانت الأيام تمضي خفيفة مثل الريشة : والليالي ساجية وكأنى فى دير ، والأفكار المشثومة - التى كانت تطاردنى فى أوقات أخرى - بدت وكأنها تريد أن تزايلنى . كم هى بعيدة تلك الأيام السوداء فى لاكورونيا ! وكم أصبح تائها فى الذاكرة زمن الطعنات ! وذكرى لولا ، التى تركت جرحا عميقا فى قلبى ، أخذت تتلاشى ، والأيام الماضية مضت شيئا فشيئا نحو عالم النسيان ، حتى أرادت النجمة الشريرة ، هذه النجمة الشريرة التى كان يبدو أنها موكلة بمطاردتى ، أرادت أن تبعث هذه الأيام من أجل سوء حظى .

كان فى حانة مارتينيت : هذا ما قاله لى السيد سيباستيان .

- هل رأيت أبا شداد ؟

- كلا ، لماذا ؟

- لا شيء : يقولون إنه موجود فى القرية .

- فى القرية ؟

- هذا ما يقال .

- لعلك تريد أن تخدعنى !

- يارجل !، لا تغضب هكذا : بما أن هذا قد قيل لى ، فأنا أقول

لك ! ما الذى يدعونى لأن أخدعك ؟

ولم أجد وقتا لاتحقق مما كانت تحمل كلماته من صدق .

خرجت أجرى متوجها إلى بيتى : كنت أنطلق مثل الشرارة ، دون

أن أنظر حتى فى موضع قدمى . وقد قابلت أمى عند الباب .

- وروساريو ؟

- موجودة بالداخل .

- وحدها ؟

- نعم ، لماذا ؟

لم أرد : دلفت إلى المطبخ ، وهناك وجدتها تقلب القدر .

- وأبو شداد ؟

- بدت روساريو وكأنها تقفز : رفعت رأسها ، وبهدوء ، على الأقل في الظاهر ، قالت :
- لماذا تسألني عنه ؟
  - لأنه موجود في القرية .
  - في القرية ؟
  - هذا ما قيل لي .
  - إذن فهو لم يقترب من هنا .
  - هل أنت متأكدة ؟
  - أقسم لك بذلك !
- لم أكن في حاجة إلى أن أقسم لي : كان هذا صحيحا ، فحتى تلك اللحظة لم يكن قد وصل . وإن كان لابد أن يصل خلال لحظة قصيرة ، "منفوشا" مثل ملك السيوف ، متلألئا مثل فرعون .
- وقد تقابل مع أمي على الباب :
- باسكوال هنا ؟
  - من أجل ماذا تريده ؟
  - لا شيء : كي نتحدث عن موضوع .
  - عن موضوع ؟
  - نعم : عن موضوع متعلق بنا نحن الاثنين .
  - أدخل . تجده هناك في المطبخ .
  - دخل أبو شداد متخفيا ، وهو يترنم بمقطع من أغنية .
  - مرحبا ، يا باسكوال !
  - مرحبا ، يا باكو ! اكشف عن نفسك ، فأنت في بيت .
  - كشف أبو شداد عن نفسه .
  - طالما أنت تريد ذلك !
- كان يريد أن يظهر هادئا رابط الجأش ، لكنه لم يستطع أن يكون كذلك : فقد لوحظ عليه توتر الأعصاب والارتباك .
- مرحبا ، روساريو !
  - مرحبا ، باكو !

ابتسمت له أختى ابتسامة جبانة أصابتني بالقرف : وكان هو أيضا يبتسم ، لكن فمه عند الابتسام كان يبدو وكأنه فقد لونه .

- أتعرف لماذا أتيت ؟

- قل أنت .

- لكى أخذ روساريو !

- كنت أتخيل ذلك . ياأبا شداد ، إن روساريو لن تأخذها أنت .

- أنا لن أخذها ؟

- نعم .

- ومن سوف يمنعنى من ذلك ؟

- أنا .

- أنت ؟

- نعم ، أنا ، أم أنى أبدو لك شيئاً هيناً ؟

- ليس كثيراً ...

فى تلك اللحظة كان بارداً مثل غطاءة ، وقد استطعت أن أقيس جيداً المدى الذى بلغته أفعالى . فحصت قوتى ، وقست المسافات ، ودون أن أتركه يواصل الكلام حتى لا يحدث مثلما حدث المرة السابقة ، وجهت له ضربة قوية جداً فى منتصف وجهه ، ثم طرحته على ظهره عند طرف المدخنة فصار مثل الميت . حاول أن يستجمع قوته ، وأخرج السكين من غمده ، وبدأ وجهه مثل النيران المرعبة : كانت عظام ظهره مكسورة فلم يستطع أن يتحرك . أمسكت به ، وألقيته على حافة الطريق الزراعى ، وتركته .

- ياأبو شداد ، لقد قتلت زوجتى ...

- لم تكن إلا ثعلبة .

- أيا كانت ، ولكنك قتلتها . ودنست شرف أختى ...

- كانت مدنسة تماماً عندما أخذتها !

- لعلها كانت مدنسة ، ولكنك أغرقتها ! ألا تريد أن تلتزم

الصمت ؟ لقد بحثت عنى فى كل مكان حتى وجدتنى : أنا لم أرد



- آن أجرحك ، أنا لم أرد أن أكسر ضلوعك ...
- سوف تُشفى ذات يوم ، وهذا اليوم !
  - هذا اليوم ، ماذا ؟
  - سوف أفرغ فيك رصاصتين مثل كلب عقور !
  - لاحظ أنك الآن تحت رحمتي !
  - لن تعرف أنت كيف تقتلني !
  - لن أعرف كيف أقتلك ؟
  - بلى .
  - لماذا تقول هذا ؟ تحس بأنك متأكد من نفسك جدا !
  - لأنه حتى الآن لم يولد الشخص !
  - كان الفتى شجاعا .
  - أتريد أن تمضي إذن ؟
  - سوف أمضي عندما أريد !
  - وسيكون ذلك الآن حالا !
  - أعد لي روساريو !
  - لا أرغب في ذلك !
  - أعدها ، وإلا قتلتك !
  - لم يبق إلا القتل ! انظر إلى نفسك كيف أنت الآن !
  - ألا تريد أن تعطيني إياها ؟
  - كلا !
- وحاول أبوشداد ، بعد أن بذل جهدا قويا ، أن يطرحني جانبا .
- أمسكته من رقبته وألقيته على الأرض .
- أخرج من هنا !
  - لا أريد !
- تدافعنا ، فطرحته على الأرض ، ووضعت ركبتي على صدره
- ثم اعترفت له :

- أنا لم أقتلك لأنى أخذت على نفسى عهدا بذلك ...
- مع من ؟
- مع لولا .
- إذن ، هل كانت تحببني ؟
- كان هذا التبجح يفوق الحد . ضغطت عليه بقوة أكثر قليلا .
- وكانت عظام صدره تصدر صريرا يشبه صرير السفود ( الشواية ) ... بدأ يقىء دما من فمه . وعندما نهضت من عليه كانت رأسه قد التوت - بدون قوة - فى أحد الجوانب ...

ظللت ثلاث سنوات محبوسا ، ثلاث سنوات بطيئة ، وطويلة  
مثل المرارة ، لدرجة أنى إذا كنت قد اعتقدت فى البداية أنها لن  
تمر أبدا ، فقد رأيت بعد ذلك أنها كانت حُلما : ثلاث سنوات وأنا  
أعمل ، بشكل متواصل ، فى ورشة إسكافى السجن : وأعرض  
نفسى ، فى فترات الراحة ، لشمس الفناء ، هذه الشمس التى  
كانت تروق لى كثيرا . وأنا أرى الساعات تمضى وتحمل معها  
روحى المشتاقة ، تلك الساعات التى أوقف عدُّها قبل الأوان -  
لسوء حظى - سلوكى الطيب .

ومما يثير الأسى أن المرات القليلة التى لم يحدث أن تصرفت  
فيها على نحو شديد السوء ، فى هذه الحياة ، وجدت أن هذا  
الحظ السيئ ، وهذه النجمة الشريرة ، التى تحدثت عنها فيما  
سبق ، تبدو وكأنها تسعد بصحبتى ، فتلوى الأشياء وتوجهها  
بصورة تجعل الطيبة بمنأى عن روحى أو قل حتى تمضى الأمور  
فى طريق اللعنة . بل إن هناك ما هو أسوأ : إنها لا تجعلها بمنأى  
فقط وإنما تنحرف بها وتدفعنى دائما إلى ارتكاب أكثر الأشياء  
سوءا . ولو أنى سلكت سلوكا سيئا لبقيت فى سجن شينشिला  
CHINCHILLA الثمانية وعشرين عاما التى كانت محددة لى ،  
ولتعفنت حيا مثل كل المساجين ، ولأصابنى الملل حتى الجنون ،  
والياس ، ولصرت ملعونا فى كل كتاب مقدس ، ولانتهى بى الأمر  
إلى أن يُسمم كل شئ فىّ ، لكنى كنت هناك أظهر مما ارتكبته ،  
وأُحرر من جرائم دم جديدة ، سجيناً وأسيراً - هذا صحيح -  
ولكن رأسى مرفوعة على كتفى مثلما ولدت ، متحررا من كل ذنب ،

وإن لم يكن الخطيئة الأصلية : ولو أنى سلكت سلوكا لا له ولا عليه مثل الجميع ، لخفضت الثمانية والعشرين عاما إلى أربعة عشر أو ستة عشر عاما ، ولماتت أمى مودة طبيعية قبل أن أخرج من السجن ، ولفقدت أختى روساريو شبابها ، ومع شبابها جمالها ، ومع جمالها خطرها ، وأنا - هذا الإنسان البائس ، هذا المهزوم السيء الحظ الذى ليس قادرا على أن يثير فيك وفى المجتمع بعض الشفقة تجاهه - أقول وأنا كنت خرجت وديعا مثل شاة ، ناعما مثل بطانية ، وربما بعيدا عن خطر الوقوع فى سقطة جديدة . ولو أنى كنت أعيش مطمئنا لعلى فى هذه الساعات كنت فى أى مكان متخصصا فى عمل أكل منه ، وأحاول أن أنسى الماضى حتى لا أنظر إلا إلى ما هو أت : وربما كنت وصلت إلى ذلك فعلا ... وعلى كل حال فقد تصرفت بأفضل ما استطعت ، وأظهرت وجهها طيبا فى زمن السوء ، ووفيت ، بزيادة ، ما كان يطلب منى ، واستطعت أن أجعل جانب العدالة لينا ، وحصلت على أفضل تقاريرات للمدير ... فأفرجوا عنى : فتحووا لى الأبواب : تركونى بدون دفاع أمام الشرور . قالوا لى : - لقد وفيت ، ياباسكوال : عد إلى الكفاح ، عد إلى الحياة ، عد لتحمل الجميع ، ولتتحدث مع الجميع ، ولتحتك مرة أخرى بالجميع .

ومن حيث أرادوا أن يقدموا لى معروفا ، أغرقونى إلى الأبد .

هذه التأملات لم تخطر على بالى للمرة الأولى فى هذا الفصل وفى الفصلين التاليين : ولكنها سرقت منى ( وحتى الآن لم أستطع أن أفسر لماذا أرادوا أن يأخذوها منى ) ، بالرغم من أن هذا سوف يبدو لك غريبا ولم تصدقنى ، وقد جاءتنى هذه الأفكار وأنا فى حالة حزن ، من جهة ، بسبب هذا الإثم غير المبرر الذى يسبب لى الكثير من الآلام ، وبسبب ضيقى بالتكرار من جهة أخرى ، حتى ليكرهنى على التذكر ، ويضع أمامى الفكرة تلو الفكرة ، وبما أنى أعتبر الوقوف ضد الإرادة توبة فكم من مرات

التوبة أستحق من أجل ضعف روحي ، لا من أجل ذنوبي الكثيرة ، وعلى أية حال أيا كانت هذه الأفكار ، فإنني أتركها طازجة مثلما خرجت لي ، حتى تنظر إليها أنت كيفما يروق لك .  
وعندما خرجت وجدت الحقول حزينة جدا ، أكثر حزنا مما كنت أتصور . كنت أتصورها خلال الأفكار التي تطوف بذهني وأنا سجين - وتكهن سيادتك لماذا - خضراء ناضرة مثل المروج ، خصبة وجميلة مثل حقول القمح ، والفلاحون يعملون فيها بجد ، يكدحون فيها بفرح من طلوع الشمس إلى غروبها ، وهم يغنون ، وقربة النبيذ في جانب ، والرأس خالية من الأفكار السوداء ، لكنني وجدتتها عند خروجي قاحلة ذابلة مثل المقابر ، خالية من الناس ليس فيها إلا صومعة متنقلة في اليوم التالي ليوم القديسة ...

أما شينشيلا فهي قرية متواضعة مثل كل قرى منطقة لامانشا ، تزرع تحت كتلة من الأسى العميق ، رمادية وهزيلة مثل كل المناطق السكنية التي لا يعرف فيها الناس كيف يمدون خياشيمهم في الوقت المناسب ، وأنا لم أبق فيها إلا الوقت الذي احتجت إليه لكي أخذ قطار العودة إلى قريتي ، إلى بيتي ، إلى عائلتي ؛ إلى القرية التي سأعود لأراها مرة أخرى في نفس المكان ، إلى بيتي الذي يلمع في الشمس مثل جوهرة ، إلى عائلتي التي ربما تنتظرني من أجل الكثير ، والتي قد لا تتصور أنني فجأة سأنضم إليها ، وإلى أمي التي لعل الله رقق من طباعها خلال ثلاث سنوات ، وإلى أختي ، أختي الحبيبة القديسة التي ربما تقفز من الفرع عندما تراني .

تأخر القطار في الوصول ، تأخر ساعات طويلة . وأنا أستغرب من أن إنسانا يحمل على كاهله ساعات لا حصر لها من الانتظار يلاحظ في غير صبر هذا التأخر لساعة أكثر أو ساعة أقل ، ولكن المؤكد هو أن هذا ما حدث ، كنت في غاية القلق ، وكنت أتمزق وأنا أنتظر وكأن مرور الوقت سوف يضع عليّ صفقة هامة جدا . مشيت في المحطة ، ذهبت إلى الكانتين ( المطعم ) ، عبرت



ميدانا بجوار المحطة ... لا شيء : القطار لم يصل ، القطار لم يطل حتى الآن ، بعيد يسير فى الوقت الضائع . تذكرت السجن الذى كان يُرى من بعيد ، خلف مبنى المحطة : كان يبدو صحراء ، لكنه كان ممتلئاً حتى الحواف ، يضم بين جدرانها عددا كبيرا من التعساء الذين يمكن أن تملأ مئات الصفحات بأحداث حياتهم . تذكرت المدير ، ففى المرة الأخيرة التى رأيته فيها ، كان عجوزا ، أصلع الرأس ، له شارب أبيض وعينان زرقاوان مثل السماء : كان يسمى السيد كونراد . وكنت أحبه مثل الوالد : وأشعر بالشكر تجاهه لكلمات المواساة الكثيرة التى كان يبثها لى فى مرات كثيرة . و آخر مرة رأيته فيها كانت فى مكتبه ، إلى حيث استدعانى .

- هل تسمح لى ، ياسيد كونراد ؟

- ادخل ، يابنى .

كانت السنوات والعلل قد أثرت على صوته ، وعندما كان ينادينا بكلمة يابنى كان يبدو أنها مازالت تزيد لنا ، أو كأنها تسبب له رعشة عندما تخرج من شفتيه . طلب منى أن أجلس على الجانب الآخر من المكتب : قدم لى علبة التبغ ، كبيرة ، من جلد الماعز : وأخرج لنفسه لفة وقدم لى أخرى .

- سيجارة ؟

- شكرا ياسيد كونراد .

ضحك السيد كونراد .

- لكى أتحدث معك من الأفضل أن يكون الدخان كثيرا . وبهذا لا يقع النظر إلا قليلا على وجهك القبيح هذا . قال ذلك وأطلق قهقهة ، قهقهة اختلطت فى النهاية بنوبة كحة ، نوبة كحة استمرت معه حتى خنقته ، وحتى تركته متورما وأحمر مثل الطماطم . وضع يده فى صندوق وأخرج كوبين وزجاجة كونياك . أما أنا فقد قفزت : دائما كان يعاملنى بصورة طيبة ، هذا صحيح ، ولكن لم يكن أبدا مثل ذلك اليوم .

- ماذا حدث ، ياسيد كونراد ؟

- لا شيء ، يا بني ، لا شيء ... هيا ، اشرب ... من أجل حريتك !

عاد السعال يهاجمه . وأنا سألته :

- من أجل حريتي ؟

لكنه ألقى إليّ بإشارات من يده بألا أقول شيئاً ، وهذه المرة حدث العكس : فقد انتهى السعال بضحكة .

- نعم . كل المحتالين لديكم حظ !

وأخذ يضحك ، مستمتعا لأنه استطاع أن يقدم لي هذا الخبر ، وسعيدا لأنه استطاع أن يُطلقني إلى الشارع . مسكين السيد كونراد ، كم كان طيبا ! لو أنه عرف أن أفضل شيء بالنسبة لي هو ألا أخرج من هنا ! وعندما عدت إلى شينشيللا ، إلى ذلك المنزل ، اعترف لي بذلك والدموع تترقرق في عينيه ، في هاتين العينين اللتين كانتا أكثر زرقة بقليل من الدموع .

- حسنا ، الآن الأمر جد ! اقرأ ...

وضع أمام عينيّ أمر الإفراج . وأنا لم أكن أصدق ما أراه .  
- هل قراته ؟

- نعم ، ياسيدي .

فتح حافظة ، واستخرج ورقتين متساويتين ، التصريح .

- خذ ، هذا لك : بهذا يمكن أن تذهب إلى حيث تريد . وقع

هنا : دون أن تلوث شيئاً .

طويت الورقة ، وضعتها في المحفظة ... كنت حرا ! أما الذي حدث في داخلي في تلك اللحظة فلا أعرف كيف أشرحه . ثم ظهرت الجدية على وجه السيد كونراد : فوجه إليّ خطبة وعظ عن الشرف والعادات الطيبة ، وقدم لي أربع نصائح عن البواعث لو أنني وضعتها أمام عيني من قبل لوفرت على نفسي أكثر من كرب ثقيل ، وعندما انتهى من كلامه ، ولكي تختتم الحفلة ، قدم لي خمسا وعشرين بيزيطة باسم جمعية سيدات إصلاح

المساجين ، وهى مؤسسة خيرية تكونت فى مدريد للعمل على مساعدتنا .

ثم ضرب الجرس فجاء أحد ضباط السجون . ومدّ لى السيد كونراد يده .

- وداعا ، يابنى . وليحفظك الله !

لم أكن أملك نفسى من الفرح . واستدار ناحية الضابط .

- يامونيوث ، رافق هذا الرجل حتى الباب . وخذه قبل ذلك إلى الإدارة : إن معه ما يكفيه لمدة ثمانية أيام .

أما مونيوث فلم أعد أراه بعد ذلك أبدا طوال أيام حياتى . لكنى رأيت السيد كونراد ، نعم رأيته ، بعد هذا بثلاث سنوات ونصف .

وأخيرا وصل المطار : فكل شىء فى هذه الحياة يصل إن عاجلا أو آجلا ، ماعد العفو عن المهانين : إذ يبدو أنه ، أى هذا العفو ، يحس بالمتعة فى الابتعاد . ركبت فى الديوان المخصص لى ، وبعد أن ظللت انتقل من جانب لآخر طوال يوم ونصف اليوم ، وصلت أخيرا إلى محطة القرية ، التى كانت معروفة لى جيدا ، والتى أخذت أفكر فى منظرها طوال الرحلة . ولم يكن أحد ، لا أحد على الإطلاق ، اللهم إلا الله الذى فى الأعلى ، يعرف أنى على وشك الوصول ، ومع ذلك - ولا أدري لماذا تسيطر على أحيانا أفكار غريبة - جاءت لحظة تصورت خلالها الرصيف يغص بالناس الفرحين الذين يستقبلوننى وأذرعهم مرفوعة فى الهواء ، يلوحون بالمناديل ، ويصيحون باسمى فى الجهات الأربع .

وعندما وصلت ، كان ثمة هواء بارد حاد مثل السكين ينغرس فى قلبى . ولم يكن هناك أحد على المحطة . كانت الدنيا ليلا ، ورئيس المحطة السيد جريجوريو ، بفانوسه ذى الفتيلة بلونه الأخضر من جانب والأحمر من جانب آخر ، ورأيته المغمدة فى

قلنسوته الصفيح ، قد أعطى منذ قليل أمر التحرك للقطار . والآن  
لعله يقترب ناحيتي ، سوف يعرفني ، وسوف يهنئني .

- ما هذا ، باسكوال ! ها أنت هنا !

- نعم ، ياسيد جريجوريو ، حر !

- كويس ، كويس !

ثم استدار نصف دورة دون أن يعيرني اهتماما . ودخل  
مسكنه . وأنا شعرت برغبة في أن أصبح له :

- أنا حر ، ياسيد جريجوريو ! أنا حر ! ، لأنني ظننت أنه لم  
ينتبه لذلك . لكنني ظلمت برهة واقفا ، وامتنعت عن فعل هذا .

كان الدم يضرب عند أذني والدموع على وشك أن تترقق في  
كلتا عيني . فالسيد جريجوريو لم تهمة حرיתי في شيء .

خرجت من المحطة وحمل العفش على كتفي ، وانحرفت نحو

سراط يؤدي إلى الطريق الزراعي الذي يقع عليه بيتي ، دون أن

أجد ضرورة للمرور بالقرية ، وبدأت المشي . كنت أمشي حزينا ،

حزينا جدا : فكل سعائتي قتلها السيد جريجوريو بكلماته

الحزينة ، وبدأ سيل من الأفكار المشؤومة ، نذير التعاسة ، يغزو

ذاكرتي ، وقد ذهبت محاولاتي للهرب من هذه الأفكار هباء . كان

الليل ساجيا ، بدون غيمة واحدة ، والقمر مثل ذبيحة مثبتا في

كبد السماء . ولم أكن أريد أن أفكر في البرد الذي يغزوني .

وبعد ذلك بقليل ، على يمين السراط ، في منتصف الطريق

تقريبا كانت تقع المقابر ، في نفس المكان الذي تركتها فيه ،

وبنفس السياج من الطوب اللبن الأسود اللون ، وشجرة السرو

العالية التي لم تتغير في شيء ، بقبرتها التي تطلق صفيرا بين

الأغصان . المقابر التي كان يرتاح فيها أبي من هياجه : وماريو ،

من براءته : وزوجتي ، من إهمالها : وأبو شداد من تصرفاته

السوقية . المقابر التي تحللت فيها بقايا ولدي ، الجنين

المجهض وباسكوال الصغير ، انذى كان في الأحد عشر شهرا

التي بلغها يحاكي الشمس .



كنت أحس بالاحتراق وأنا أصل إلى القرية ، هكذا ، وحيدا ،  
في الليل ، وأمرّ أوّلا بجوار الجبانة ! لقد بدا وكأنّ القدر كان  
يسعد بأن يضعها أمامي ، ويجعلها في طريقى لكي يجبرنى أن  
أقع في تأمل ما نحن عليه من قلة شأن !

كان ظلّ جسدى ( خيالى ) ينطلق دائما للأمام ، طويلا ، طويلا  
جدا ، مثل شبح ، ملتصقا بالأرض ، ومتواصلا معها ، يمضى تارة  
مستقيما على الطريق ، وتارة يصعد على سياج المقابر ، وكأنه  
يريد أن يطل عليها . أخذت أجرى قليلا : والظل يجرى أيضا .  
توقفت : وتوقف الظل أيضا . نظرت تجاه القبة الزرقاء : ولم يكن  
هناك سحابة واحدة في كل الأنحاء . استمر الظل يصحبني ،  
خطوة خطوة ، حتى وصلت .

شملنى خوف ، خوف لا يمكن تفسيره : تخيلت الموتى  
خارجين بهياكلهم العظمية ينظرون إلىّ وأنا مار . لم أجرؤ على  
أن أرفع رأسى : غذت السير : كان الجسد يبدو وكأنه فقد ثقله :  
والصندوق أيضا . فى تلك اللحظة أصبحت أحس بقوة لم أحس  
بها أبدا من قبل . وجاءت لحظة أخذت أهول فيها مثل كلب  
هارب : كنت أجرى ، وأجرى وكأنى مجنون ، أو ممسوس .  
وعندما وصلت إلى بيتى كنت منهكا تماما : لم أستطع أن أتقدم  
خطوة أكثر من ذلك ...

وضعت الخُرج على الأرض وجلست عليه . لم نكن نسمع أى  
ضجة : روساريو وأمى كانتا ، بالتأكيد ، فى عز النوم ، وليس  
لديهما أى علم بأنى وصلت ، وأنى أصبحت حرا ، على بعد  
خطوات قليلة منهما . ومن يدرى فلعل أختى كانت قد أدت صلات  
الإنقاذ - وهى الصلاة التى كانت تعجبها كثيرا - فى اللحظة التى  
استلقت فيها على السرير ، من أجل أن يُطلق سراحى ! ومن يدرى  
فلعلها فى تلك الساعات كانت تحلم ، حزينة ، بتعاستى ،  
وتتخيلنى ملقى على ألواح الزنزانة ، وذاكرتى متجهة نحوها ،  
وهى الود الوحيد الصادق الذى كان لى فى حياتى ! ولعلها تقفز



الآن من كابوس ألم بها .  
وها أنا أمسيت هناك ، كنت هناك ، حرا ، ومعافى مثل تفاحة ،  
مستعدا لكى أبدأ من جديد ، لكى أواسيها ، لكى أدللها ، لكى  
أستقبل ابتسافتها .

لم أكن أدري ماذا أفعل ؛ فكرت أن أطرق الباب ... ربما  
يصيبهما الفزع ؛ فلا أحد يطرق الباب فى هذه الساعات . ولعلهما  
لا تجرؤان على الفتح ؛ لكن ليس من الممكن أيضا أن أستمّر  
هكذا ، وكان من المستحيل أن أنتظر طلوع النهار جالسا على  
الصندوق .

وعلى الطريق الزراعى لمحت رجلين آتيين يتحدثان بصوت  
عال ؛ كانا يمضيان فى شروء ، وكأنهما فى حالة سرور ؛ وكانا  
قادمين من المندرا ليخو ، ومن يدري فربما لكى يرى كل منهما  
خطيبته . وقد تعرفت عليهما بسرعة ؛ إنهما ليون ، أخو  
مارتينيت ، والسيد استيبان . وقد وجدتني أختبئ ؛ لا أدري  
لماذا ، ولكن رؤيتهما فى تلك اللحظة كانت سابقة لأوانها .

مرّا قريبا جدا من البيت ، قريبا جدا منى ؛ وكان حديثهما  
واضحا تمام الوضوح .

- هل رأيت ما حدث لباسكوال .
- إنه لم يفعل أكثر مما كان يمكن أن يفعل أى إنسان آخر .
- يدافع عن زوجته .
- طبعاً .

- وهو الآن فى شينشيل . على بعد يوم سفر فى القطار ، وقد  
قضى جوالى ثلاث سنوات ...

أحسست بفرح عميق ؛ مرّ بى مثل شعاع لتخيلى طريقة  
الخروج ، لتقديم نفسى لهما ، لأخذهما بالأحضن ... ، ولكنى  
فضلت ألا أفعل ذلك ؛ فقد جعلونى فى السجن أكثر هدوءا ،  
وأفرغونى من طرق الاندفاع .

انتظرت حتى ابتعدوا . وعندما حسبت أنهما صارا بعيدا بما فيه الكفاية ، خرجت من مخبئي وذهبت إلى الباب . كان الصندوق هناك ؛ لم يرياه . لو أن بصرهما وقع عليه لاقتربا منه ، وصار لزاما عليّ أن أخرج لأفسر لهما هذا الوضع ، ولاعتقدا أنني كنت أختفي ، كنت أهرب منهما .

لم أرد أن أفكر في هذا الموضوع أكثر من ذلك ؛ اقتربت نحو الباب وطرقت عليه طرقتين . لم يرد عليّ أحد ؛ انتظرت دقائق ، لا شيء . عدت أطرق الباب ، هذه المرة بقوة أكبر . في الداخل أضيء قنديل .

- من ؟ !

- أنا !

- أنت مين ؟

كان هذا صوت أمي . أحسست بالفرح وأنا أسمعها ، لماذا أكذب :

- أنا ، باسكوال .

- باسكوال ؟

- نعم ، يا أمي ، باسكوال !

فتحت الباب ؛ وعلى ضوء القنديل كانت تبدو مثل ساحرة .

- ماذا تريد ؟

- كيف ماذا أريد ؟

- نعم .

- أدخل . ماذا سأريد ؟

كانت غريبة . لماذا تعاملني هكذا ؟

- ما الذي حدث لك ، يا أمي ؟

- لا شيء ، لماذا ؟

- كلا ، لأنني أراك شبه متوقفة !

أستطيع أن أؤكد أن أمي كانت تفضل ألا تراني . إن مشاعر الكراهية في الأزمنة الماضية كان يبدو أنها تريد أن تعود لتحبس

فى من جديد . كنت أحاول أن أفر منها ، أن ألقى بها جانبا .

- وروساريو ؟

- ذهبت .

- ذهبت ؟

- نعم .

- إلى أين ؟

- إلى المندرا ليخو .

- مرة أخرى ؟

- مرة أخرى .

- مرتبطة ؟

- نعم .

- مع من ؟

- وأنت ماذا يهيك ؟

بدا وكأن العالم يريد أن يسقط على رأسى . لم أكن أرى  
بوضوح ؛ فكرت هل أنا فى حلم . ظللنا نحن الاثنين لحظة  
قصيرة صامتين .

- ولماذا ذهبت ؟

- ها أنت ترى !

- لم ترد أن تنتظرنى ؟

- لم تكن تعرف أنك ستأتى . كانت دائما تتحدث عنك ...

مسكينة روساريو ، أى حياة تعسة كانت تعيشها بالرغم من

أنها كانت فى غاية الطيبة !

- هل عضكما الجوع ؟

- أحيانا .

- وهل مشيت من أجل هذا ؟

- من يدري !

- عدنا للصمت .

- هل ترينها ؟

- نعم : تأتي من وقت لآخر . وبما أنه أيضا هنا !
- هو ؟
- نعم .
- من هو ؟
- السيد سيباستيان .
- أحسست أنى أموت . لقد كنت مستعدا لأن أدفع المال من أجل
- أن أستمّر فى السجن .

- جاءت روساريو لفرانى عندما علمت بعودتى .  
- عرفت بالأمس أنك عدت . لا تدرى كم فرحت !  
كم كان يعجبني سماع كلماتها !  
- نعم ، أعرف ، ياروساريو ؛ وأتصور ذلك . وأنا أيضا كانت  
لدى رغبة فى أن أراك !  
كان يبدو وكأننا نؤدى واجبا ، أو كأننا قد تعارفنا منذ عشر  
دقائق فقط . وكان كل منا يبذل جهدا حتى يخرج الأمر بشكل  
طبيعى . وقد سألت ، لمجرد السؤال ، بعد برهة :  
- كيف عنك لك أن تمشى مرة أخرى ؟  
- هذا ما حدث .  
- هل كنت فى ضيق ؟  
- إلى حد كبير .  
- ولم تستطيعى أن تنتظرى ؟  
- لم أرد .  
وتحشرج صوتها .  
- لم أرغب فى أن أمر بفواجع أخرى ...  
لقد فهمت ؛ المسكينة كانت فى حالة ضيق شديد .  
- فلندع الحديث عن هذا ، ياباسكوال .  
كانت روساريو تبتسم بسمتها المعتادة ، هذه البسمة الحزينة  
المكروبة التى تنطبع على شفاة التعساء .  
- فلننتقل إلى شيء آخر .. هل تعرف أن عندى لك عروسة ؟



- لى أنا ؟  
- نعم .  
- عروسة ؟  
- نعم ، يارجل . لماذا ؟ هل تستغرب ؟  
- كلا .. يبدو غريبا هذا . فمن التى سوف ترغب فى ؟  
- أية إنسانة . ألسنت أنا أحبك ؟  
كان اعتراف أختى لى بالود ، بالرغم من معرفتى السابقة  
بذلك ، يسعدنى ؛ وانشغالها بالبحث عن عروسة ، أيضا . وتأمل  
سيادتكم كم هى نكتة !

- ومن هى ؟  
- بنت أخ السيدة إنجراثيا .  
- أمل ؟  
- نعم .  
- فتاة جميلة !  
- إنها تحبك من قبل أن تتزوج .  
- لكنها كانت صامئة تماما !  
- ماذا تريد ، كل واحدة لها طبيعتها !  
- وأنت ، ماذا قلت لها ؟  
- لا شىء ؛ أنك ذات يوم لابد أن تعود .  
- وقد عدت ...  
- شكرا لله !

إن العروسة التى كانت تحتفظ لى بها روساريو كانت فى  
الحقيقة امرأة جميلة . لم تكن من نوع لولا ، وإنما على العكس  
تماما ، شىء هكذا يقع فى المنتصف بينها وبين زوجة  
استليبيس ، وفيها أيضا ، إذا تحققنا جيدا ، شبه فى النمط من  
شخصية أختى . كان عمرها فى ذلك الحين يناهز الثلاثين أو  
الاثنين وثلاثين عاما ، ويبدو عليها أنها شابة ومحافظة بالرغم

من هذا التقدم فى السن الذى لا يلاحظ . كانت متدينة جدا ومتصلة بالتصوف ، وهو أمر غريب فى تلك البلاد ، وكانت تترك نفسها فى مهب الحياة ، مثل الغجر ، وفكرها مركز على شىء واحد تقوله دائما :

- من أجل ماذا نتغير ؟ كل شىء مكتوب !  
كانت تعيش فى الربوة مع عمتها ، السيدة إنجراثيا ، أخت أبيها المتوفى من الأب ، لأنها أصبحت يتيمة الأبوين وهى فى سن صغيرة ، وبما أنها كانت معتدة بنفسها وفيها شىء من الخجل ، لم يقل أحد أبدا إنه رآها مع شخص أو سمعها تتناقش ، وخاصة مع عمتها التى كانت تكن لها كثيرا من الاحترام . كانت نظيفة مثل القليلات ، ولونها يشبه لون التفاح ، وعندما صارت بعد فترة قصيرة زوجتى - زوجتى الثانية - ، فرض هذا النظام فى بيتى ، مع أنه لم يعترف لها أحد بذلك ضمن الأشياء الكثيرة التى عرفت عنها .

والمرة الأولى التى نظرت فيها إلى وجهها ، فى ذلك الحين ، لم يخل الأمر من بعض العنف بالنسبة لكلينا : فكل منا كان يعرف ما الذى سوف يقوله ، وكل منا كان يرنو للآخر خفية وكأنه يتجسس على حركته .

كنا وحدنا ، لكنه سيان : وحدنا منذ ساعة وكل لحظة تمر كان يبدو وكأن البدء فى الكلام سوف يكلف مجهودا أكبر . وكانت هى التى أطفأت النار :

- عدت أكثر سمنة .

- يمكن ...

- ومظهرك أكثر وضوحا .

- هذا ما يقولون ...

كنت أبذل جهدا داخليا حتى أظهر بمظهر الودود المجامل ، لكنى لم أستطع تحقيق ذلك : كنت مثل الأبله ، وكأنى مسحوق بوزن يثقل على ، ولكنى مازلت أحتفظ لهذا الموقف بذكرى بصفته أحد أجمل الانطباعات التى مرت بى فى حياتى ، وبصفته

- أحد الانطباعات التي سبب لي فقدانها أسي كبيرا .
- كيف كان ذلك المجال ؟
- سيئا .
- كانت تبدو وكأنها تفكر . من يدري في ماذا تفكر !
- هل تذكرت لولا كثيرا ؟
- أحيانا . لماذا أكذب ؟ بما أنني كنت طول النهار أفكر ، فقد كنت أتذكر كل شيء . حتى أبو شداد ، تصوري ! كان يظهر على أمل بعض الشحوب .
- أنا سعيدة لأنك عدت .
- نعم ، يا أمل ، وأنا أيضا سعيد لأنك انتظرتني .
- بماذا انتظرتك ؟
- نعم ؛ أم أنك لم تكوني تنتظريني ؟
- من قال لك ذلك ؟
- انظري ، كل شيء يُعرف !
- اهتز صوتها ، ولم يلبث هذا الاهتزاز أن انتقل إلى .
- هل هي روساريو ؟
- نعم ، وهل في هذا من سوء ؟
- لا شيء .
- وأطلت الدموع من عينيها .
- ما الذي تصورته عني ؟
- ماذا تريد أن أتصور عنك ؟ لا شيء !
- اقتربت منها ببطء وقبلت يديها . وهي تركت نفسها لأقبلها .
- أنا حر مثلك ، يا أمل .
- .....
- حر مثلما كان لي من العمر عشرون عاما .
- كانت أمل تنظر إليّ في خجل .
- لست عجوزا ؛ لا بد أن أفكر كيف أعيش
- نعم .

- فى إصلاح عملى ، وبيتى ، وحياتى ... هل حقيقة كنت تنتظريننى ؟

- نعم .

- ولماذا لم تقولى لى ذلك ؟

- لقد قلته لك .

هذا صحيح ؛ كانت قد قالت لى ، لكنى كنت أستمتع بجعلها تكرر هذا القول .

- قوليه لى مرة أخرى .

لكن أمل احمرت خجلاً مثل "قرن شطة" . وأخذ صوتها يخرج متقطعاً ، وشفتاها وأهداب الأنف ترتعشان مثل الأوراق التى تحركها نسمة الهواء ، ومثل زغب طائر الكنارى الذى ينتفش فى الشمس .

- كنت أنتظرك ، ياباسكوال . وكنت أصلى فى كل الأيام من أجل أن تعود سريعاً ؛ وقد سمع الله دعائى .

- هذا صحيح .

عدت لأقبل يديها . كنت كأنى مُطفاً . لم أجروء على أن أقبلها فى وجهها .

- هل تريد ... ، هل تريد ... ؟

- نعم .

- هل تعرف ما كنت سأقول ؟

- نعم ، لا تواصلى .

صارت متألقة فجأة مثل طلوع الصبح .

- قبّلنى ، ياباسكوال ...

غيرت من صوتها ، وصارت مُسهّدة ، وشبه بخيلة .

- لقد انتظرتك طويلاً .

قبّلتها بحرقة ، وبقوة ، فى حب واحترام لم أحس به أبداً مع أية امرأة ، وطويلاً ، طويلاً لدرجة أنى عندما ابتعدت عنها كان الحب المخلص قد ظهر على .

كان قد مرَّ علينا في الزواج شهران عندما لاحظت أن أمي مازالت تستخدم نفس مهاراتها ونفس فنونها السيئة التي كانت تستخدمها قبل أن أدخل السجن . كان دمي يحترق من حركاتها التي تعبر دائما عن النفور من الناس والتوجس من ناحيتهم ، ومن أحاديثها الجارحة والمتعمدة دائما ، باللهجة التي كانت تحدث بها دائما بطريقة مصطنعة ومتكلفة مثل كل أمور حياتها . وبالنسبة لزواجي ، بالرغم من أنها كانت تتساهل معها ، وهل هناك حل غير هذا ! لم تكن تستطيع أن تراها حتى ولا في الصورة . ولم تكن تخفى عدم إرادتها لها ، وذات يوم فاض الكيل بأمل ، سهرت على فترة بطريقة استطعت أن أرى من خلالها أنه ليس هناك من حل إلا الفصل بين الاثنين بمسافات ، أو كما يقول الناس وضع أرض في المنتصف ، وهذا التعبير يقال عندما يفصل اثنان ويعيش كل منهما في قرية بعيدة عن الأخرى ، ولكن يمكن أن يقال هذا أيضا عندما يكون بين الأرض التي يمشي عليها شخص والأرض التي ينام عليها آخر عشرون قدما من الارتفاع .

دارت في رأسي كثيرا فكرة الهجرة : كنت أفكر في لاكورونيا أو مدريد ، أو مدينة أقرب من الاثنتين ، في الاتجاه المؤدى إلى العاصمة ، ولكن الحال هو - ومن يدري هل بسبب الجبن أو بسبب العجز عن اتخاذ قرار - أن هذا الموضوع ظل يؤجل ، ويؤجل ، حتى جاءت لحظة انطلاقي في السفر ، لا مع أحد اللهم إلا أعضاء جسدي وحدها ، أو مع ذكرياتي فقط ، وكنت حينئذ أود لو وضعت الأرض في المنتصف ... الأرض التي لم تكن كبيرة



بما فيه الكفاية حتى أهرب من ذنبي ... الأرض التي لم يكن لها طول ولا عرض كاف حتى يجعلنى أتبدل أمام نداء ضميرى نفسه .

كنت أريد أن أضع أرضا بين ظلى وأنا ، بين اسمى وذكرياتى وأنا ، بين جلدى نفسه وبينى ، هذه الذات التي لو رفعنا عنها الظل والذكرى ، والاسم والجلد ، فلن يبقى لها إلا أقل القليل . هناك أوقات يكون من الأفضل فيها أن يشطب الإنسان نفسه مثل الميت ، ويختفى فجأة وكأن الأرض قد ابتلعتة ، ويتبخر فى الهواء مثل خيط من الدخان . إنها أوقات لا نحصل عليها ، ولكننا عند الحصول عليها تحولنا إلى ملائكة ، نحول دون أن نظل فى حماة الجريمة والخطيئة ، وتحررنا من هذا الثقل الذى ينوء به اللحم الفاسد الذى - وأؤكد لك - لن نعود نذكره فى شيء - وهذا هو أسوأ ما فى الأمر - اللهم إلا إذا تكفل أحد بصورة دائمة ألا ننساه ، أحد يشغل نفسه بتذرية نفاياته الطافحة حتى يجرح حاسة الشم لدى الروح عندنا . ولا شيء يثير رائحة نتنة أو يكون شديد السوء أكثر من الجذام الذى يتركه الماضى السيئ فى الضمير ، مثل الألم الذى إن لم يخرج من منطقة السوء فإنه يؤدى إلى تعفن مستودع عظام الآمال الميتة ، بعد قليل من مولدها ، حيث هى كذلك حياتنا الحزينة منذ وقت طويل . وفكرة الموت تأتى دائما مع خطوة ذئب ، ومسيرة حيّة ، مثل كل التخيلات السيئة . والأفكار التى تزعجنا لا يمكن أن تأتى أبدا بشكل فجائى ؛ فالشيء الفجائى يخلق لعدة لحظات ، لكنه بعد أن يمضى عنا ، يترك لنا سنوات طويلة من الحياة أمامنا . فالأفكار التى تؤدى بنا إلى الجنون ، إلى أسوأ أنواع الجنون ، وهو جنون الحزن ، تأتى دائما شيئا فشيئا ودون أن نحس بها ، ودون أن نحس يغزو الضباب الحقول ، أو السعال الصدور . يتقدم ، لا محالة ، فى غير تعب ، لكن ببطء ، وعلى مهل ، ومنظما مثل النبض . اليوم لا نلاحظ ذلك ؛ غدا أيضا ، ولا بعد غد ، ولا خلال شهر كامل . ولكن هذا الشهر يمضى فنبدأ نحس

بمرارة الأكل ، وألم التذكر ؛ لقد لدغنا . وبمرور الأيام والليالي تحيط بنا مشاعر النفور ، والعزلة ؛ وتطبخ الأفكار فى رعوسنا ، هذه الأفكار التى لابد أن تؤدى إلى أن تقطع هذه الرأس التى نمت فيها ، ومن يدري فربما يكون ذلك لكى لا يستمر المرء فى العمل بفضاعة . وربما نظل أسابيع كاملة دون أن نتغير ؛ والذين يحيطون بنا يتعودون على جهامتنا ولا يستغربون حتى من غرابتنا نفسها . ولكن السوء يكبر ذات يوم ، مثل الأشجار ، ويسمن ، وهنا لا نقدم للناس التحية ؛ ويبدأ الناس يحسون بأن فينا غرابة أو أننا مثل المحبين . ونمضى مع الجنون ، مع الجنون ، وتصير ذقننا المنتفشة كل يوم أكثر ذبولا . ونبدأ نحس بالكراهية التى تقتلنا ؛ ولا نعود نتحمل أن ينظر إلينا أحد ؛ ويؤلمنا الضمير ، ولكن ، لا يهم ؛ فمن الأفضل أن يؤلم ؛ وتحرقنا العينان ، اللتان تمتلآن بماء مسمم عندما ننظر بقوة . ويلاحظ العدو رغبتنا ، لكنه واثق ؛ فالحس لا يكذب . إن التعاسة فرحة ، مرحبة ، ونحن نستمتع بالذ الحاسيس عندما نجعلها ترحف على ميدان واسع من الزجاج يصبح فى النهاية هو روحنا وعندما نهرب مثل الأيائل ، وعندما يتخطى السمع أحلامنا ، يكون قد أحاط بنا الشر ؛ ولم يعد ثمة حل ، ولم يعد فى الإمكان إصلاح ذات البين . ونبدأ فى السقوط ، بلا هوادة ، حتى لا نعود إلى النهوض فى هذه الحياة . وربما لكى ننهض قليلا فى الساعة الأخيرة قبل أن نسقط برأسنا فى أغوار الجحيم ... شئ سيئ . كانت أمى تحس برضا شديد فى اختبار طبيعتى التى كان الشر ينمو فيها مثلما يكبر الذباب على رائحة الموتى . فالصفراء التى تجرعتها قد سممت لى القلب ، الذى انتشرت فيه الأفكار السيئة جدا فى ذلك الحين ، حتى أنى أمسيت مفزوعا من شجاعتي نفسها . لم أكن أريد أن أراها ؛ وكانت الأيام تمضى متساوية يوما بعد آخر ، بنفس الألم المتغلغل فى الأحشاء ، ونفس نذر العاصفة التى تلقى بغمامة على بصرنا .

فى اليوم الذى قررت ففه أن أستخدق الحديء كنت فى حالة تعب شءىءة ، متأكءا تماما من أنه لاء من إراقه ءماء الشر ، أما فكرة موت أمى فلم تؤء إلى ءغفر النذر الفسفر من نبضات قلبى . كان أمرا محتوما لاء أن فأتى وقء آتى ، وأنا لاء أن آتسبب ففه ولا فمكن أن آءنب ذلك مهما أرءت ، لأنه كان ففءو لى مستحفا أن أفر من رأففى ، وأن أعود إلى الوراء ، وآءنب ما أنا مستعء الآن لأن أقءم ففه فءى فءاء لو أنه لم فقع . ولكنى فى ذلك الحفن كنت أستمتع بإءارة هذا الموضوع بنفس الحساب ونفس التأمل الذى فستخءمه ، على الأقل ، أء الفلاحفن لفكر فى محصوله من القمح .

كان كل شىء معءاً : وقء قضفء لفالى كاملة طوفلة أفكر ففه لكى أشجع نفسى ، ولكى آتسلح بالقوة : شءذت السكفن فى الصخر ، بءه الطوفل العرفض مثل ورق الذرة ، ومقبضه من الصءف الذى فمنحه صفة ءءءى . ولم فكن فبقى حفنئذ إلا ءءفء الموعد ، وبعء ذلك لا ءرءء ، ولا عودة إلى الوراء ، وإنما وصول إلى النفاة ولفكن ما فكون واللاءام بالهءوء .... ثم الجرح ، الجرح بءون تألم ، وبسرعة ، ثم الهرب ، الهرب بءفا ءءا ، إلى لأكورونفا ، الهرب إلى حفء لا أء فمكنه أن فكتشف ذلك ، حفء أستطفع أن أفعش فى سلام منتظرا نسلان الناس ، هذا النسلان الذى فءركنى أعود لأبءا الحفاة من ءءفء .

إن ضمفرى لن فؤنبنى : لفس هناك سبب لذلك . فالضمفر فؤنب فقط على المظالم المرءكة : ضرب طفل ، إسقاط خطاف ، ولكن هذه الأعمال التى فكون الباعء من ورائها هو الكراهفة ، والفى نمضى إلها مثل المنومفن بفكرة مءسلطة علفنا ، لا فنبغى أن نءم علها أبءا ، ولا فؤنبنى علها الضمفر إطلاقا .

كان ذلك يوم ١٠ فبرافر عام ١٩٢٢ . وقء ءوافق مع يوم ءمعة فى ذلك العام ، العاشر من فبرافر . كان الجو صحوا وهو ما فءء دائما فى هذا البلد : والشمس ساطعة ، وفى المفءان على

ما أذكر كان هناك فى ذلك اليوم عدد كبير من الأطفال يلعبون "الحجلة" أو "الاستغماية". وقد فكرت كثيرا فى ذلك لكنى حاولت أن أنتصر على نفسى ونجحت فى هذا : فالعودة إلى الوراء أصبحت من المستحيل ، ويمكن أن تكون شؤما بالنسبة لى ، ويمكن أن تؤدى بى إلى الموت ، ومن يدرى فربما إلى الانتحار . وربما كان سينتهى بى الأمر إلى أن يعثر على الناس غريقا فى أعماق نهر وادى يانة ، أو صريعا تحت عجلات القطار ... كلا ، لم يكن من الممكن أن أراجع ، لابد من الاستمرار ، للأمام دائما ، حتى النهاية . كانت إذن مسألة حب الذات .

ولعل زوجتى لاحظت على شيئا .

- ماذا ستفعل ؟

- لا شيء ، لماذا ؟

- لا أدري ! يبدو وكأنك فى وضع غريب .

- كلام فارغ !

قبلتها ، حتى أطمئنها : كانت آخر قبلة أعطيتها لها . كم كنت بعيدا عن إدراك هذا فى ذلك الحين ! ولو أنى أدركت ذلك لترددت .

- لماذا تقبلنى ؟

تركنى هذا السؤال جامدا .

- ولماذا لا أقبلك ؟

وقد جعلتنى كلماتها أفكر كثيرا . كانت تبدو وكأنها تعرف كل ما سوف يحدث ، وكأنها كانت فى نهاية الشارع . وقد ظلت الشمس فى نفس المكان مثل كل الأيام . وجاء الليل ... تناولنا طعام العشاء ... ثم ذهبنا إلى السرير ... وأنا بقيت ، كالعادة ، ألعب بجمرة المكان . ومنذ وقت طويل لم أكن أذهب إلى حانة مارتينيت .

وجاءت الفرصة ، الفرصة التى ظلت انتظرها وقتا طويلا .



كان لابد من التغلب على الخوف ، الانتهاء بسرعة ، بأقصى سرعة ممكنة . فالليل قصير ، وفي الليل لابد وأن يتم كل شيء ، وينبغي أن يطلع الصباح وأنا على بُعد فراسخ طويلة من القرية .

ظللت أسمع لحظة طويلة . لم يكن يسمع شيء . ذهبت إلى حجرة زوجتي : كانت نائمة ، وقد تركتها فوراً نائمة . وكانت أمي تنام أيضاً في حالة اطمئنان كاملة . عدت إلى المطبخ : خلعت حذائي : كانت الأرضية باردة ، وحجارة الأرضية تتسمر عند انامل رجلي . أخرجت السكين من غمده ، كان يشع بريقاً مثل بريق الشمس .

كانت هناك ، مستلقية تحت الملاءات ، ووجهها ملتصق تماماً بالمخدة . لم يكن أمامي إلا أن ألقى بنفسى على الجسم وأطعنه بالسكين . لن تتحرك ، لن تطلق صرخة واحدة ، فلن تجد الوقت لذلك ... كانت في متناول الذراع ، نائمة بعمق ، خالية البال - ياإلهى ، كم يكون المقتولون دائماً فارغى البال بينما القدر لهم بالمرصاد ! مما سوف يحدث لها . كنت أريد أن أحسن الأمر ، ولكنى لم أستطع بعد الوصول إلى ذلك : وحدث مرة أن رأيت ذراعى يرتفع ، لكنه عاد ليسقط مرة أخرى على امتداد الجسم . فكرت أن أقفل عيني وأضرب . لا يمكن أن يكون : فالضرب فى العمى مثل عدم الضرب ، معناه أن يضرب المرء فى الخلاء ... لابد من الضرب والعينان مفتوحتان جيداً ، والحواس الخمس مركزة كلها فى الضربة . كان لابد من الاحتفاظ برباطة الجأش ، واستعادة رباطة الجأش التى بدا أنها بدأت تضيع أمام رؤية جسد أمي ... كان الوقت يمر وأنا مازلت هناك ، واقفاً ، ثابتاً مثل تمثال ، دون أن أقرر النهاية . لم أكن أجرو ، فبالرغم من كل شيء هي أمي ، أمي التى ولدتنى ، ومن أجل هذا فقط كان يجب أن



أسامحها ... كلا : لا أستطيع أن أسامحها لأنها ولدتنى . فبعد أن ألقتنى إلى العالم لم تقدم لى أى معروف ، أى معروف على الإطلاق ... لم يعد أمامى وقت لأضيعة . كان لابد أن أحسم الأمر مرة واحدة . وجاءت لحظة كنت فيها واقفا وكأنى نائم ، بالسكين فى يدي مثل صورة عن الجريمة ... كنت أحاول أن أنتصر على نفسى ، أن أستعيد قوتى ، وأن أركزها . كنت أتحرق رغبة فى أن أنتهى فجأة ، بسرعة ، وأن أخرج جريا حتى أسقط منها فى أى ركن . كنت خائر القوى ، فلقد بقيت ساعة طويلة بجانبها ، وكأنى أحرسها ، وكأنى أسهر على رعايتها . بينما أنا قد ذهبت لأقتلها ، لأقضى عليها ، لأخلع عنها الحياة بالطعنات .

وربما مرت ساعة أخرى . كلا : بشكل نهائى ، كلا . لم أكن أستطيع : كان شيئا يعلو على قواى ، شيئا يهيج دمي . فكرت أن أهرب . وربما أحدث ضجة عند خروجي : سوف تستيقظ ، وتتعرف على . لا ، لم أكن أيضا أستطيع أن أهرب : كنت أمضى بلا رحمة فى طريق الانهيار ... لم يكن هناك حل إلا أن أطعن بلا شفقة ، بسرعة ، حتى أنتهى فى أسرع وقت ممكن . لكنى لم أستطع أيضا أن أطعن ... كنت كأنى واقع فى ورطة أغرق فيها شيئا فشيئا بدون أى علاج ممكن ، بدون مخرج ممكن . وكان الطين يصل حتى رقبتى . كنت ساموت مخنوقا مثل قط ... وكان من المستحيل تماما بالنسبة لى أن أقتل : صرت مثل المشلول . استدرت دورة لى أمشى . كانت الأرضية تصر . وتحركت أمى على السرير .

- من هناك ؟

عندئذ أدركت أنه لم يعد هناك حل . اندفعت نحوها وضغطت عليها . قاومت ، ثم انتهت ... وكان هناك لحظة استطاعت خلالها أن تمسكنى من رقبتى ، وأخذت تصيح مثل امرأة محكوم عليها . تصارعنا . كان أفضع صراع يمكن أن تتخيله سيادتكم . زارنا مثل حيوانات متوحشة ، وكان اللعاب يطل على شديقنا ... وفى دورة

من الدورات رأيت زوجتى ، بيضاء مثل ميتة ، واقفة على الباب دون أن تجرؤ على الدخول . كانت تحمل قنديلا فى يدها ، وهو القنديل الذى استطعت أن أرى وجه أمى على ضوءه ، بنفسجيا مثل ثوب راهب من الناصرة ... واصلنا المعركة ؛ تمزقت هدومى ، وصار صدرى فى الهواء . كانت المحكوم عليها تمتلك قوة مثل قوة الشيطان . اضطررت أن أستخدم كتفى كله كى تظل ساكنة . خمس عشرة مرة وأنا أفعل ذلك وخمس عشرة مرة وهى تفلت منى . كانت تجرحنى بأظافرها ، وتركلنى ، وتوجه الىّ لكلمات ، وتعصبنى . وفى لحظة استطاعت أن تصطاد حلمة صدرى الأيسر وانتزعته بقوة ، وكانت هى اللحظة نفسها التى استطعت خلالها أن أوجه لها طعنة بالسكين فى حلقها .. جرى الدم بغزارة ولطخ وجهى . كان ساخنا مثل الفضلات ومتدفقا مثل دم شاة .

دفعته وخرجت هاربا . اصطدمت بامرأتى عند الخروج ، انطفا منها القنديل . توجهت إلى طريق الحقول وجريت ، جريت بدون توقف خلال ساعات كاملة . كانت الحقول منعشة وجرى فى أوردتى إحساس وكأنه شعور بالراحة .  
كان يمكن أن أتنفس ...

## مذكرة أخرى للناسخ

إلى هنا انتهت الأوراق المخطوطة لباسكوال دوارتي . فقد حمل إلى المشنقة بعد ذلك مباشرة ، أو لو أنه وجد وقتاً قبل هذا ليكتب عن أحداث أخرى ، ثم فقدت الأوراق ، فهذا أمر لم أتوصل إلى توضيح له رغم كل ما بذلت من جهد .

لقد قدم لي حامل اليسانس السيد بينيجنو بونيلا صاحب صيدلية أندراليخو التي عثرت فيها ، كما ذكرت من قبل ، على ما قدمته مكتوباً في الصفحات السابقة ، كل أنواع التسهيلات لمواصلة البحث عن الأوراق . وقد قلبت الصيدلية مثلما يقلب المرء جورياً ، ونظرت حتى في قوارير الصيني ، وخلف الزجاجات . وفوق - وتحت - الدواليب ، وفي صندوق البيكربونات . تعلمت أسماء جميلة - مرهم ابن زكريا ، لرأعي الأبقار والحوذي ، للسك والراتينج ، لخبز الخنزير ، وحبّة الفار ، لأحسان . ضد أحد أمراض قطعان الضأن - وقد سعلت أمام رائحة المستردة ( المخردل ) ، وارتعشت عند الفاليريانا ( حشيشة الهر ) . ودمعت عيناى مع النشادر ، ولكن على كثرة ما قنت به من دوران ، وكثرة ما وجهت من دعوات إلى القديس أنطونيو كي يضع شيئاً في متناول يدي ، فلا بد أن هذا الشيء لم يوجد إطلاقاً لأنى لم أعثر له على أثر .

إن هذا النقص المطلق في المعلومات عن السنوات الأخيرة لباسكوال دوارتي يُعد عائقاً ليس بالهين . وإذا آتينا بعملية حسابية ، وهي غير صعبة ، فإن ما يبدو واضحاً هو أنه قد خد

من جديد إلى سجن شنشيو ( ويستدل على ذلك من كلماته نفسها ) ولابد أنه استمر هناك حتى عام ٣٥ أو من يدري فربما حتى عام ٣٦ . ومع ذلك يبدو مستبعدا أنه خرج من الحبس قبل أن تبدأ الحرب . أما الموضوع الذى لا توجد أية طريقة بشرية للتحقق منه فهو المتعلق بتصرفه خلال الخمسة عشر يوما من الثورة التى مرت بقريته : وإن كنا نستثنى من ذلك مقتل السيد جونثايت دى لاريقا - حيث كان صاحبنا هو مرتكب هذا الفعل والمعترف به - ولا شىء غير ذلك ، لا شىء على الإطلاق ، لم نستطع أن نعرف شيئا عنه . وحتى عن هذه الجريمة ، المؤكدة ، المنتهية والواضحة . لكننا نجهلها . لأن باسكوال استمر الصمت ولم يقل هذا الفم هو فمى إلا عندما أراد ذلك ، وهذا لم يحدث إلا فى مرات قليلة جدا لأسباب اعتمد عليها وبواعث دفعته إلى ذلك . ولعل تنفيذ الحكم عليه لو تأجل بعض الوقت لوصل فى مذكراته حتى هذه النقطة وتناولها بكثير من التوسع ، ولكن المؤكد هو أن هذا لم يحدث ، ومن ثم فإن الحلقة المفقودة للأيام الأخيرة من حياته لا يمكن ملؤها إلا بواسطة القصة والشعر الشعبى وهو حل لا يتفق مع مصداقية هذا الكتاب . ولابد أن خطاب باسكوال دوارتى للسيد خواكين باريرا قد كتب فى الوقت الذى كان يحرق فيه الفصلين الثانى عشر والثالث عشر ، وهما الفصلان الوحيدان اللذان استخدم فيهما حبرا بنفسجيا ، يشبه الحبر المستخدم فى خطابه للسيد المذكور ، مما يبرهن على أن باسكوال لم يوقف حكايته بشكل نهائى كما قال ، وإنما أعد الخطاب بعناية شديدة حتى يظهر تأثيره فى الوقت المناسب ، وهذا الاحتراس يدلنا على أن هذه الشخصية ليست كثيرة النسيان ولا تنطوى على نوع من الجنون مثلما تبدو للوهلة الأولى . أما الشىء الواضح تماما ، لأنه نقل إلينا بواسطة أونباشى الحرس المدنى ثيساريو مارتين ، الذى تلقى



الأمر ، فهو الطريقة التي نقلت بها حزمة الأوراق من سجن بطليوس إلى بيت السيد باريرا في ماردة .

ونظرا لرغبتى فى أن أوضح قدر الإمكان اللحظات الأخيرة من حياة الشخصية توجهت بخطاب إلى السيد سانتياجو لورونيا ، قسيس السجن فى ذلك الحين ، والآن مسئول كنيسة فى ماجاثيلا ( بطليوس ) وإلى السيد ثيساريو مارتين ، عضو الحرس المدنى المعين فى سجن بطليوس فى ذلك الحين . والآن أونباشى قائد فى منطقة فيثيلا ( ليون ) ، وكلاهما كانا بحكم وظيفتهما قريبين من المجرم عندما كان يوفى بديونه تجاه العدالة . وهاتان هما الرسالتان :

ماجاثيلا ( بطليوس ) ، فى ٩ يناير عام ١٩٤٢ .  
سيدى العزيز المستحق لكل التبجيل :

وصلتنى فى هذه اللحظات ، وبتأخير واضح ، رسالتك الكريمة المؤرخة فى ١٨ من شهر ديسمبر الماضى ، وبها الـ ٣٥٩ ورقة المكتوبة على الآلة وتتضمن مذكرات البائس دوارتى . وقد بعث لى بكل هذا السيد دافيد فرير أنجولو ، المسئول الحالى عن سجن بطليوس ، وزميلي فى سنوات الشباب بالفصل الدراسى فى سلمنقة . أريد أن أهدى صيحات ضميرى بنسخ هذه الكلمات بمجرد فتح الظرف ، وأترك ذلك للغد إن شاء الله ، وذلك بعد أن قرأت متبعا تعليماتك ومدفوعا بالفضول الحزمة التى بطرفى .  
( يتبع يوم ١٠ )

قرأت منذ قليل قراءة سريعة ، بالرغم من أن هذه - كما يقول هيرودوت - ليست طريقة نبيلة للقراءة ، اعترافات دوارتى ، ولا تتصور سيادتك الانطباع العميق الذى تركته فى روحى ، والأثر الشديد ، والحفر الواضح الذى أحدثته فى نفسى . وبالنسبة لخادم تلقى كلمات الندم الأخيرة له بنفس المتعة التى يتلقى بها الفلاح محصوله الطيب ، فإن قراءة ما كتبه هذا الرجل الذى ربما يُصوّر للأغلبية من الناس على أنه ضبع ( مثلما تصورته أيضا



عندما استدعيت إلى زفرانته ( بالرغم من أننا عندما نفحص أعماق روحه يمكن أن نتأكد من أنه ليس أكثر من حمل وديع ، محاصر ومصاب بالرعب من هذه الحياة ، أقول إن قراءة هذا المكتوب لا تخرج منها إلا بانطباع فى غاية القوة .  
كان موته نموذجا للاستعداد ولم يكن ذلك إلا فى اللحظة الأخيرة ، عندما زايله الشعور بالحماس ، لقد تمزق كثيرا ، مما جعل البائس يعانى روحيا بشكل كان يمكن أن يتفاداه لو أتيح له قدر أكبر من الشجاعة .

لقد ربط أعمال النفس بالهدوء ورباطة الجأش مما جعلنى مذهولا ، ونطق أمام الجميع ، عندما جاءت لحظة إدخاله إلى الساحة جملة "فلتمض إرادة الله" ، وهذا جعلنا أيضا نتعجب من تواضعه المذهب . خسارة أن العدو سرق منه لحظاته الأخيرة ، وإلا ، فقد كنت متأكدا أن موته يشبه موت القديسين ! لقد كان موته نموذجا لكل من شاهدوه ! ( حتى فقد السيطرة على نفسه . كما أقول ) كما كانت له نتائج طيبة بالنسبة لمهنتى كطبيب أرواح فقد استفدت من كل ما رأيت . وأدعو الله أن يدخله فى مستقر رحمته !

وتقبل ، ياسيدى ، أطيب التحيات التى يبعث بها إليك المتواضع .

س . لورونيا ، بريسبترو

ب . د . أنا أسف لأنى لم أستطع أن أحصل لك على الصورة الفوتوغرافية ولا أدرى أيضا ماذا أقول لك حتى تتصرف فى هذا الأمر .

واحدة . والأخرى .

فيثيلا ( ليون ) ، ١٢ - ١ - ٤٢

سيدى العزيز :

وصلتنى رسالتك المؤرخة فى ١٨ ديسمبر ، وأنا إذ أرسل إليك هذه الرسالة أدعو لك بالصحة والعافية . أما عنى فإنى أحمد الله

كثيرا ، وإن كنت متيبسا مثل عصا في هذا المناخ الذى لا نتمناه حتى لأكثر الناس إجراما . والآن أخبرك بما طلبته منى ، ذلك لأن ليس هناك أى سبب فى الخدمة يمنعنى من ذلك ، ولو وجد هذا المانع فإنك كنت ستلتمس لى العذر لأنى فى هذه الحالة لم أكن أستطيع أن أقول كلمة واحدة . وفيما يتعلّق بالمذكور باستكمال دوارتى الذى تحدثنى عنه أعتقد أنى مازلت أذكره . لأنى كان أشهر سجين عندنا فحفظنا اسمه فترة طويلة . وبالنسبة لمرحته العقلية لا أستطيع أن أثق فيها حتى ولو قدموا لى الدورادو لى يقنعنى بذلك ، لأن كل الشواهد كانت تؤكد مرضه وقبل أن يعترف أى اعتذار كان كل شيء على ما يرام . ولكنه عذرها فعمل ذلك للمرة الأولى عرفنا أن الشكوك ونوبات الدم بدأت تهاجمه ، كان يريد أن يتطهر بالتوبة : فى أيام الاثنين لأن أمه ماتت فى ذلك اليوم ، وأيام الثلاثاء ، لأنه اليوم الذى قتل فيه كودى توريميذا . وأيام الأربعاء ، لأنه اليوم الذى مات فيه لا أدرى من . والحال أن البائس كان يقضى نصف الأسبوع تقريبا لا يذوق طعام لينة بإرادته ، حتى ذهب لحيته . ولما يجعلنا نلاحظ أن الجلاء لم يبذل جهدا كبيرا عند وضع التوابين فى وسط الحلقوم . وهذا البائس جدا كان يقضى الأيام فى الكتابة . وكأنه مصاب بحصى ، وبدأ أنه لم يكن يضايق أحدا . وبما أن المدير كان طيب القلب فقد أمرنا بأن نمده بما يحتاج إليه حتى يواصل الكتابة ، ومن هذا ازداد الرجل ثقة ولم يكر بحرف لحظة . وفى إحدى المرات نادانى ، وأرانى رسالة داخل ظرف مفتوح ( وقال لى حتى تقرأها سيادتك ، إذا أردت ) كانت موجهة إلى السيد خواكين باريرا لوبيث ، فى ماردة ، وقال لى فى لهجة لم أعرف أبدا هل كانت توسلا أم أمرا :

- عندما يحملوننى ، خذ سيادتك هذه الرسالة ، ورتب قليلا هذا الركाम من الورق ، وسلمه كله إلى هذا السيد . فاهمنى ؟ وأضاف بعد ذلك وهو ينظر إلى عيني ، وقد وضع سره هذا فى

نظرتي التي أفرغتني :

- إن الله سوف يجزيك .... لأنني سوف أطلب منه ذلك .  
وقد أطعته ، لأنني لم أرسوئا في هذا ، ولأنني كنت دائما أحترم  
رغبات الموتى .

وفيما يتعلق بموته ، ينبغي أن أقول لك فقط إنه كان عاديا  
تماما وبائسا ، وبالرغم من أنه في البداية كان يبدو هادئا ، ونطق  
أمام كل الناس جملة "كله بإرادة الله" مما جعلنا مندهشين ، إلا  
أنه نسي فجأة كيف يحتفظ برباطة جأشه . وعندما رأى سقالة  
الإعدام أغمى عليه ، ولما عاد إلى وعيه كان يطلق أصواتا تقول  
إنه لا يريد أن يموت . وأن ما يفعلونه معه ليس من العدل ، ومن  
ثم فقد نقل رغم أنفه إلى الدكة . وهناك قبل آخر مرة الصليب  
الذي أخرجه له الأب سانتياجو ، وكان هو المسئول الديني في  
السجن ولا يكاد يختلف عن القديسين في شيء ، وقد انتهت أيام  
باسكوال وهو يبصق ويضرب الأرض برجله ، دون أية عناية من  
جانب المحيطين به ، وبأكثر الطرق حطة وسفالة مما يمكن أن  
ينتهي به إنسان ، وهو يظهر للجميع خوفه من الموت .

وأنا أرجوك إذا كان هذا في الإمكان أن ترسل لي نسختين من  
الكتاب ، بدلا من نسخة واحدة ، عندما تطبع هذه الأوراق .  
والنسخة الأخرى ستكون من أجل الملازم الأول للصف الذي  
طلب مني أن أدفع له ثمن الكتاب ، وذلك إذا كان هذا يناسبك .  
ولعلني أكون قد شفيت بعض ما في نفسك ، وتقبل تحيات .  
ثيساريو مارتين

تأخرت في تسليم رسالتك وهذا هو السبب الذي أدى إلى وجود  
فرق كبير بين تاريخ كل من الرسالتين . لقد أرسلت إلى من  
ببليوس ، وتسلمتها هنا يوم ١٠ ، السبت ، أو أول أمس .  
فماذا أستطيع أنا أضيف إلى ما قاله هذان السيدان ؟

مدريد ، يناير عام ١٩٤٢

روايات الهلال تقدم

## خديجة وسوسن

بقلم :

رضوى عاشور

تصدر : ١٥ ديسمبر ١٩٨٩

رقم الايداع : ٨٩ / ٨٢٧٣  
الترقيم الدولى : ٥ - ٤٥٥ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN



## هذه الرواية

ومرة أخرى نقدم رواية فائزة بجائزة نوبل عقب اعلان فوزها بايام ثيلة لقد جاء في حيثيات اكايمية ستكهولم ان كاميلو خوسيه ثيلا قد منح جائزة نوبل في الادب لعام ١٩٨٩ عن رواية "عائلة باسكوال دوارتي" انها "رواية خشنة" فظيعة في بعض المشاهد ، وبالرغم من فرض الرقابة عليها وتحريمها فقد كان لها صدى غير مسبوق ، لدرجة انها تسبب بعد الكيخوتة ( دون كيشوت ) اثر رواية مقروءة في الادب الاسباني وباسكوال دوارتي السان دفعته الظروف إلى ارتكاب مجرمة من الجرائم كان آخرها قتل امه . لقد اصبح مجرما رغم انه .

باسكوال نموذج انساني استطاع ان يحصل على جائزة نوبل ولذا ثابنا يهمننا ان نقدم هذا النموذج بصرف النظر عما يقال عن الكاتب حيث لا يجوز ان نعزل انفسنا عما يجري في العالم ، ايا كانت الحجج والذرائع .



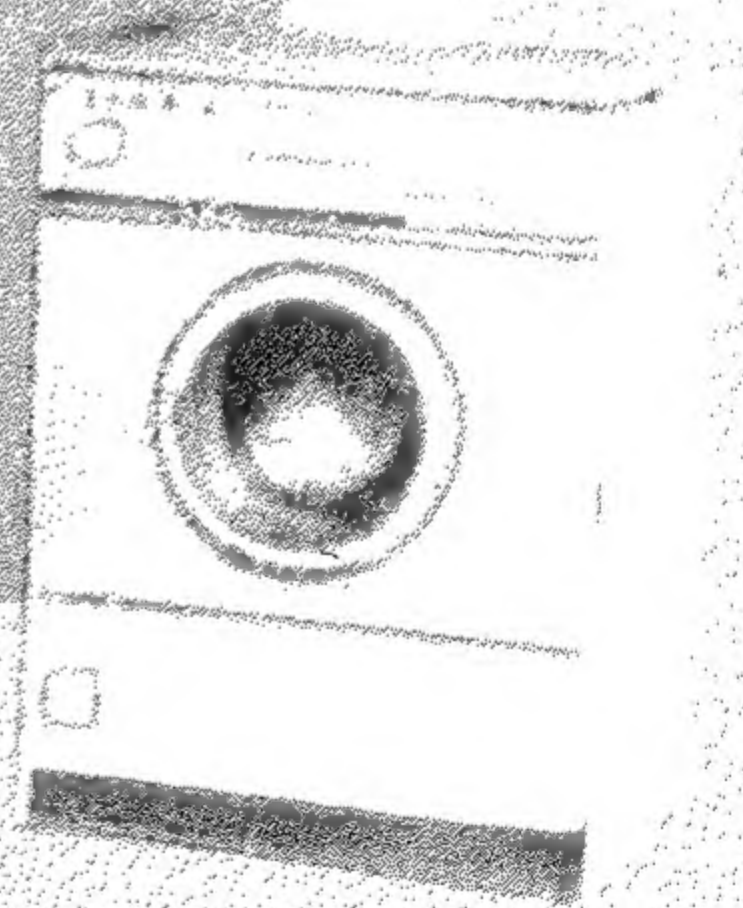
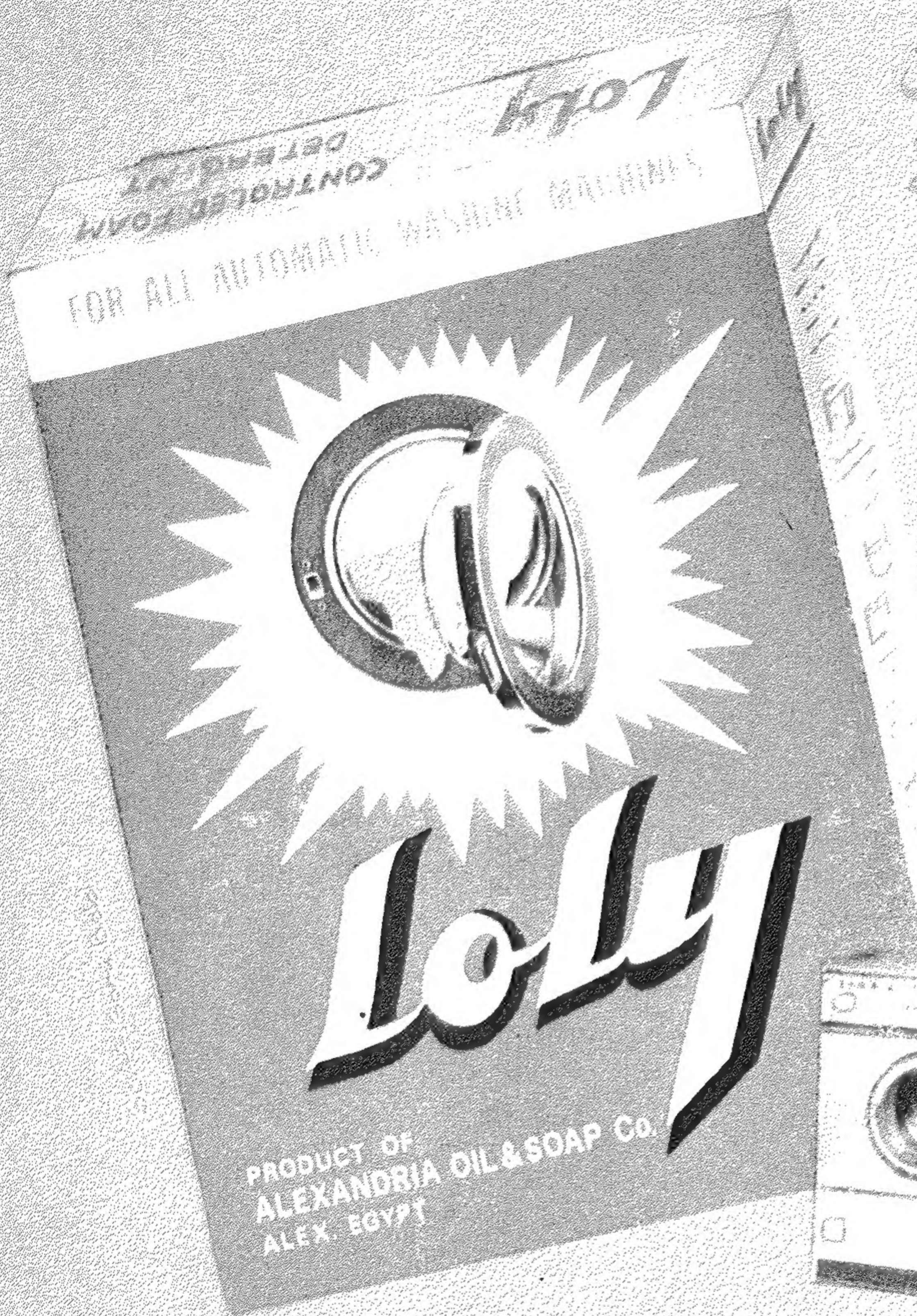
كاميلو خوسيه ثيلا

هو الكاتب الذي لمع اسمه فجأة في الشهر الحالي عقب فوزه بجائزة نوبل في الادب عن روايته "عائلة باسكوال دوارتي" التي نترجمها كاملة ولد في عام ١٩١٦ من أب اسباني ، وأم انجليزية . عملت معه وزارة الادب ، فقد كتب الرواية ، والمسرحية ، وادب الرحلات ، وفي المقالات ، من أهم أعماله الأخرى "الخلية" ، و"رحلة الى القبر" ، و"قنصون المتعة" .

اكدت اكايمية ستكهولم ان اهميته ككاتب انه يمتلك روحا تلقائية تتخرج فيها تجربة الواضحة في التجريب مع العرف المثير .



الغسالات  
الأوتوماتيكية



اللاما

- رغوة محدودة ممتدة المفعول -
- الوحيد الذي يتميز باحتوائه
- على أنزيمات فعالة - - -
- لها القدرة على إزالة
- البقع البروتينية

إنتاج شركة الزيت والصابون في الإسكندرية

أشياء يصعب تنظيفها  
تكون آداءه في الوقت المناسب



ألوان شالقا شيبا

اماندا



Bibliotheca Alexandrina



0383890



ولقد من الخبر جمان  
لشفتيك.. لعينيك.. رظا فرك.. لوجيب